# الفصل الثالث

## الفرعونية الملعونة

المتتبع لكل الآيات التى تناولت فرعون فى القرآن سواء تصريحاً أم تلميحاً يخلص إلى جملة أو خليط من الصفات الذميمة والمنبوذة، لا تكاد تجد فيها صفة أقل قبحاً من أختها، فبنظرة سريعة إلى الآيات المتناولة لقصته مع موسى تبرز صفات الاستعلاء والتكبر والجهل والطغيان والإسراف والضلال والانتقام والإجرام والإفساد والكذب وغيرها، غير أن أكثرها بشاعة ادعاؤه الألوهية والربوبية.

وفيما يلى سوف نتناول بشىء من التفصيل جملة هذه الصفات والتى شكلت شخصية ذلك الفرعون وشكلت ما يمكن تسميته بالمذهب الفرعونى أو الفرعونية.

### التألُّه وادِّعاء الربوبية

لقد كانت الآفة الكبرى والذنب العظيم الذى لا يغتفر، والذى لم يشاركه فيه، فيما يذكر القرآن الكريم سوى ملك آخر لا يقل ضلالاً وتجبراً، وهو «النمرود» ملك بابل فى محاجاته مع إبراهيم عليه السلام، وإن لم يكن هذا النمرود بالصورة الفجة التى ظهر عليها فرعون. وكان قد طلب من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ عند ذلك قال النمرود ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، ذلك أنى آتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيُقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يُقتل. ولهذا قال له إبراهيم لما ادَّعى هذه المكابرة:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة].

أى إذا كنت كما تدَّعى من أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود وفى تسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تخرج كل يوم من المشرق فإن كنت إلها كما ادَّعيت تحيى وتميت فأتِ بها من المغرب؟. فلما أيقن بعجزه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بُهت وخرس وقامت عليه الحجة قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى لا يهديهم إلى طريقه القويم ولا يلهمهم الحجة ولا البرهان بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

ولقد اعتقد المصريون القدماء أن الدولة ملك الحاكم الملك الذى يرقى فى كثير من الأحيان إلى مصاف أبناء الآلهة فى حياته أو الآلهة بعد مماته. ولهذا نجد من قبل فرعون موسى من الملوك من ينسبون أنفسهم إلى الآلهة تقرباً منهم إليهم ولإضفاء القدسية والشرعية فى نظر شعوبهم بأنهم أبناء للآلهة، وأن الفرعون هو الابن الحقيقى للإله الأعلى. وهناك نقوش فى معبدى حتشبسوت فى الدير البحرى وأمنحتب الثالث بالأقصر، بل وعلى جدران الكرنك (من الدولة الحديثة) توضح كيفية تجسيد الألوهية فى الملك المولود وأن مولد ملك هو مولد إله، حسبما يعتقد القوم فى ذلك الزمان. فنرى آمون (ملك الآلهة ورب الأرباب كما كان يعتقد المصريون القدماء) يأخذ شكل الفرعون الحاكم ويضاجع الملكة الأم. وبعد هذا الزواج الإلهى يشكل «خنوم» الطفل المقدس على عجلة الخزاف فتتم الولادة بمساعدة الربات الحكيمات، ويقدم الطفل الحديث الولادة إلى آمون والده وتعمده الآلهة وترضعه الربات الحتحورات السبع (نقش بمعبد الكرنك)[1].

ولعل هذا ما رسخ فى ذهن وعقيدة فرعون من أن إلها يتجسد فيه أو أنه هو نفسه إله، وأن الشعب يجب أن يتعبد له. إنها إذن عقيدة عند القوم أو قل سياسة جعلت الملوك يتمادون فيها، فنجد فرعون موسى يقرر ﴿...أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ و ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴿٣٨﴾﴾ [سورة القصص] ويواجه موسى عليه السلام فى تحد وغطرسة ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الشعراء].

ونظراً لتعدد الأرباب والربات فى مصر القديمة (حيث بلغت ما يقرب من ألفين من الآلهة بما فيها الآلهة الأجنبية التى جلبت من سوريا وما حولها) وما جاء به موسى عليه السلام من دعوة إلى الله الواحد الحق وبأنه مرسل منه، نجد فرعون يتساءل جاهلاً أو جاحداً عن ماهية هذا الرب، وهل هو يختلف عما يعرف من آلهة ومعبودات، أوكأنه يتساءل عن مجهول من الأشياء:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [سورة طه] أو ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء]، فما كان من موسى إلا أن أخذ يفسر له ويبين ماذا تعنى الربوبية الحق، ومن هو الإله الحق ومدى ما يتصف به من قدرة وعظمة لا تضارعها عظمة فرعون فهو:

---

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [سورة الشعراء].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء].

وفي إجمال بالغ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة طه - الآية ٥٠].

ومع استمرار الإعراض والجهل لجأ موسى إلى التفصيل الأدق، فأخذ يسوق من الدلائل والحجج الواضحة لأصحاب العقول هذا إن وجدت تلك العقول التي تعي وتفكر، فيقول عن ربه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة طه].

وأمام هذا الإيضاح الميسر لمعنى الربوبية والمعضد بالآيات الكثيرة، يؤمن موسى يقيناً أن فرعون يعلم جيداً وفي قرارة نفسه أن هذه الآيات التي يراها ويتعرض وقومه لها إنما أنزلها رب العالمين وأنه خلقٌ من مخلوقات الله الضعيفة ويواجهه بذلك، فيقول موسى:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الإسراء].

وتهتز ألوهيته المزعومة أمام الآيات البينات المتتابعة التي جاء بها موسى. فها هم أولاء السحرة الذين عاينوا من عظيم قدرة الله يخرون على وجوههم سجدا لربهم، مصدقين ما جاء به موسى ومقرين بنبوته ومؤمنين برب العالمين رب موسى وهارون، كافرين بألوهية فرعون المزيفة. فلما رأى السحرة ما رأوا عرفوا أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر فخروا سجدا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة الأعراف].

إن عدم الإيمان بربوبية فرعون والكفر بألوهيته لم ينحصر في هؤلاء السحرة الذين عاينوا ما عاينوا من القدرة الخارقة، بل شمل كذلك من عاينوا فرعون نفسه وتعاملوا معه وأدركوا قدرته الآدمية المحدودة.

فها هو ذا رجل من آل فرعون أو من الحاشية المقربة منه ﴿ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ يؤمن بموسى ويتبعه. ولعله كان يمثل انشقاقًا داخليًا فى البيت الحاكم وتمردًا على ألوهية فرعون، فقد كان لاشك على علم بأسرار الحكم والقصر وما بفرعون من نواقص ومثالب مما شجعه على أن يواجه ذلك المتأله بثبات وشجاعة ليكشف عن باطله وزيف ألوهيته. ولقد فصَّل القرآن قصة هذا الرجل فى سورة غافر ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة غافر] وهو في هذا يعلن إيمانه بما جاء به موسى وكفره بفرعون، موضحاً في النهاية بطلان ما يدعو إليه فرعون وداعياً قومه إلى الإيمان مثله.

وقد اختلف أهل العلم[1] في هذا الرجل المؤمن فقال بعضهم: كان من قوم فرعون غير أنه كان قد آمن بموسى وكان يُسِّر إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه، وقيل هو ابن عم فرعون[2] والصواب في هذا القول كما يرى ابن كثير الوقف على قوله تعالى: «من آل فرعون» لأن ذلك خبر متناه قد تم. وقال آخرون: بل كان الرجل إسرائيلياً ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون والصواب على هذا القول لمن أراد الوقف أن يجعل وقفه على قوله «يكتم إيمانه» لأن قوله: «من آل فرعون» صلة لقوله: «يكتم إيمانه» فتمامه قوله: «يكتم إيمانه».

وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الأول من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون فقد أصغى فرعون لكلامه واستمع منه إلى ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله وقال له: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. ولو كان إسرائيلياً لكان حريا أن يعاجل هذا القائل بالعقوبة على قوله لأنه لم يكن يستنصح بني إسرائيل باعتبارهم أعداء له فكيف بقوله عن قتل موسى لو وجد سبيلا[3]!.

وتشمل قائمة الكافرين بألوهية فرعون من كانت أقرب الأقربين إليه، ومن تعلم تمام العلم كذب ادِّعائه، ونعني بها زوجته "آسية بنت مزاحم". فهي وحدها التي تعرف صفات زوجها ومدى نواقص شخصيته والتي ما كانت لترقى إلى مرتبة إله للمصريين. فنجدها تكفر به وتؤمن بالله مع من آمن من بني إسرائيل. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم].

كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غَلب موسى وهارون فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء

---

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير ابن كثير

فأبصرت بيتها فى السماء فمضت على قولها فانتزع الله روحها وأُلقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح[1].

وقيل كان إيمان امرأة فرعون من قِبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشِّط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله ! فقالت لها بنت فرعون: أولك رب غير أبى؟ قالت: الله ربى ورب أبيك ورب كل شىء، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها. فأرسل فرعون إليها فقال: تعبدين ربا غيرى ؟ قالت: نعم ربى وربك ورب كل شىء الله وإياه أعبد. فعذَّبها فرعون وأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوما فقال لها: ما أنت منتهية ؟ فقالت له: ربى وربك ورب كل شىء الله، فقال لها: إنى حارق ابنك إن لم تفعلى، فقالت له: اقض ما أنت قاض. فحرق ابنها وإن ابنها بشَّرها فقال لها: أبشرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت. ثم أتى عليها فرعون يوما آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الآخر فبشَّرها روحه أيضا وقال لها: اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا، قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون. وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانا ويقينا وتصديقا. وقيل[2]: هى عمة موسى آمنت به فأطلع الله فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها فقال لهم: إنها تعبد غيرى فقالوا له: اقتلها، فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة التحريم] فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها فهى فى الجنة رضى الله عنها.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على

(١) تفسير الطبرى.

(٢) تفسير القرطبى.

النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

وفـي رواية أخرى[2] أخرج أحمد والطبرانى والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسـلم) ومريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم امـرأة فرعـون مع ما قص الله علينا من خبرهما فى القرآن قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة».

ويتمـادى فرعون فى غيه مكذِّباً موسـى ونافياً وجود هذا الإله الذى يدعو إليه موسـى فيقول فى سخرية وتحد:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سـورة القصص].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهكذا اسـتمر ضلاله وغطرسته واستعلاؤه إلى نقطة يتعدى فيها كل الحدود إلى الضلال المبين، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [سـورة القصـص] وقبلها ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النازعات]. فلا رب دونى ولا رب لكم فوقى.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [سـورة القصص].

وقـال ابن عبـاس[3]: كان بينها وبين قولتـه الأولى: «أنا ربكم الأعلى» أربعون سـنة. فكان جـزاء مـا ادَّعى من ربوبية فى قولـه الأول وألوهية فى قوله الثانـى، أن أخذه الله الأخذة الكبرى.

---

(١) تفسير ابن كثير، ومختصره.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) تفسير القرطبى.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة النازعات].

إذن هـى النهاية حيث لاعودة، والأخذة الكبرى، أخذة العزيز المقتدر ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة المزمل]. أى شديداً أو ثقيلاً غليظا، وقيل الوبيل: الشر، والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر: لقد أوبل عليه[1]. هكذا يمهل الله لمن يتجاوز حدوده حتى إذا أخذه لم يفلته، وتكون أخذته شديدة زائدة فى شدتها ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحاقة]، ويقال ربى الشىء يربو: إذا زاد وتضاعف، وهكذا أخْذُ ربك إن أخذه أليم شديد.

## الطغيان

يعنى الفعل طغى: أى زاد أو تجاوز الحد المقبول، أو أسرف فى العصيان. والطاغوت: الطاغى المعتدى، أو كثير الطغيان أو الشيطان، أو كل ما عُبد من دون الله. والطاغية: العظيم الظلم الكثير الطغيان، والطغيان نفسه هو تجاوز الحد فى الظلم[2].

والطغيان من صفات الفرعونية الذميمة التى شملت أو غلفت ما بعدها من صفات. ولعل اللفظ (طغى) فى حد ذاته، الذى ذكر فى ستة مواضع فى القرآن، منها ثلاثة كان فاعلها فرعون، يوحى بالعمومية فى تجاوز الحدود فى كل شىء، وهو ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النازعات]،

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة طه].

إن فرعون تمرد وعتا وتجاوز الحدود واقتضت إرادة الله أن يرسل إليه موسى يدعوه إلى الإيمان والتوحيد، وأن يكف عن استعباد بنى اسرائيل ويفرج عنهم، ويتركهم يخرجون من مصر، على أن تتصف هذه الدعوة باللين أمام هذا الطاغى المتغطرس لعله يتعظ فيكف عن طغيانه وجبروته ويؤمن بربه ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة طه].

ولا شك أن المدة التى قضاها موسى فى البيت الفرعونى وسابق عهده ومعرفته بالفرعون

---

(١) تفسير الطبرى.

(٢) المعجم الوجيز.

وبطشه هو ما دعاه هو وأخوه أن يقولا ربنا إننا نخاف إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن يعجل علينا بالعقوبة وأن يفرط علينا، والإفراط هو الإسراف والشطط وأن يتعدى فيزداد طغيانا.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة طه].

بل إن موسى يتذكر مع ما يتذكر من جبروت الفرعون، يتذكر قتله للمصرى تلك الجريمة التى هرب على إثرها إلى مدين فراراً من العقاب، فيخاف أن يُؤخذ بجريمته أو ذنبه القديم بعد عودته إلى مصر فيخشى أن يُقتل جزاء ذلك.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الشعراء].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القصص].

ولعل تلك الجريمة ظلت ماثلة فى الأذهان وتعيها الذاكرة الفرعونية على الرغم من تقادمها ومضى المدة على حدوثها حتى إنه ذكّر بها موسى عند عودته فقال له:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهذا الخوف من طغيان فرعون إنما كان نتيجة لتقدير موسى للمسئولية التى كُلِّف بها، وأن الله قد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم عنادا، وأكثرهم جنودا، وأعمرهم ملكا، وأطغاهم وأبلغهم تمردا. وأن الفرعون لن يفرط فى عبيده من بنى إسرائيل بسهولة، فعلى عاتقهم أعمال لا طاقة لغيرهم بها.

كل هذا دفع موسى أن يطلب من ربه أن يشرح له صدره ليعى ما يودعه من وحيه، ولكى يجترىء به على خطاب فرعون، وأن ييسر له أمره فيسهل عليه القيام بما يكلفه به من الرسالة، وأن يطلق لسانه بالمنطق، وأن يَحلُل تلك العجمة التى كانت فى لسانه. تلك اللثغة التى أصابته حين عرض عليه الفرعون التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه وذلك عن اقتراح امرأة فرعون ترد به عنه عقوبة فرعون حين أخذ موسى بلحيته وهو رضيع لا يعقل[1].

وإنما طلب موسى ما طلب حتى يعلم بنى إسرائيل وفرعون وقومه ما يقوله لهم ويفقهوه. والفقه فى كلام العرب الفهم، وأن يجعل له عوناً من أهل بيته أخيه هارون الذى يكبره فيشدد به أمره ويقوى ظهره.

---

(١) تفسير ابن كثير ، وتفسيرالقرطبى، وتفسير الطبرى.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة طه].

وفى اسلوب أدنى لغة يقول سفر الخروج (٣ : ١١) «فقال موسى لله من أنا حتى اذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بنى إسرائيل من مصر، فقال إنى أكون معك».

ولقد كان موسى عليه السلام يخشى أن يكذبه فرعون وقومه فلا يؤمنوا بما جاء به من النبوة والرسالة، فيضيق صدره ولا ينطلق لسانه لتأدية الرسالة ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء]. فهكذا يكون الخطاب.

ويُهدِّىء الله من روعه ويطمئنه:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة طه].

وأجابه الله إلى ما سأل من شرحه صدره وتيسير أمره وحل عقدة لسانه وتصيير أخيه هارون وزيرا له وشد أزره به وإشراكه فى الرسالة معه.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة طه].

أى لا تخافا منه فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شىء واعلما أن ناصيته بيدى فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وهكذا يتلاشى الخوف ويتسلح موسى بمعية الله وبما أجابه به ربه. ويمضى هو وأخوه هارون ليبلغا رسالة الله إلى فرعون ذلك الطاغى وهما ستشعران أن الله معهما يسمع ويرى ولا يعبآن بطغيان فرعون وغطرسته وبغيه.

## التعالى والاستعلاء

وتلازم صفة الطغيان وتشاركها فى الكيان الفرعونى صفة العلو والاستعلاء على خلق الله وقهرهم. والفعل «علا» لم يذكر فى القرآن بصيغة الإفراد إلا فى موضع واحد فى دلالة مباشرة على صفة الاستعلاء فى فرعون وهو ما جاء فى صدر [سورة القصص].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾. كما لم يذكر لفظ "عالين" فى القرآن إلا فى موضعين أحدهما فى الآية السادسة والأربعين من سورة المؤمنون للإخبار عما وقع من فرعون وملئه عندما أرسل إليهم موسى عليه السلام.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون]، والموضع الثانى فى الآية الخامسة والسبعين من [سورة ص] فى تساؤل من الله تعالى لإبليس عليه اللعنة عندما تكبر عن السجود لآدم وترفع عن طاعة الله.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة ص].

ولعل هذا التعالى والاستعلاء قد ظهر من فرعون وملئه بوضوح فى موقفهم من دعوة موسى وأخيه هارون فهما فى نظرهم مجرد بشرين مثلهم فلم يكونا من الملوك ولا الآلهة كما أن قومهما عبيد لهم ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

وتكبَّر فرعون وتجبَّر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان فى الأرض، أرض مصر وربما كل ما امتد إليه نفوذه من الأرض، وعلا أهلها وقهرهم حتى أقروا له بالعبودية. وجعل أهلها شيعاً أى فرقا وأصنافاً يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو أصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخِّره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية، أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم. ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل فاستعملهم فى أخس الأعمال وأكدَّها، وأرهقهم ليلا ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته المصريين التى يترفعون عنها. بل تعدى ذلك إلى قتل أبنائهم واستحياء نسائهم إهانة واحتقاراً لهم واستعلاءً عليهم، فقد كان المصريون يستقذرونهم وينظرون إليهم من علٍ.

فهل كان هذا التعالى والاستعلاء على بنى إسرائيل واضطهادهم وتعذيبهم العذاب المهين وهذا الإجرام الذى صبَّه عليهم وذلك قبل بعثة موسى عليه السلام. هل كل هذا كان نتاجاً لطبيعة فى الفرعون جُبل عليها، أو خوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى يكون سبب هلاكه وذهاب ملكه على يديه، فقد كان بنو إسرائيل يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك فيما يرجح بسبب ما جرى لسارة امرأة الخليل إبراهيم من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى الفرعون فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل[1]. فقد كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل وأحرقت بيوت مصر. فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه يعنون «بيت المقدس» رجل يكون على وجهه هلاك مصر فأمر ببنى إسرائيل ألاَّ يولد لهم غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: اجعلوا بنى إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة فجعل بنى إسرائيل فى أعمال المصريين الذين يترفعون عنها[2].

ربما يصح كل هذا، وربما يصح أيضاً أن اضطهاده لبنى إسرائيل كان لوناً من التعبير عن رفض الأجنبى وكل ما يصدر منه، حيث جاء بنو إسرائيل واستوطنوا وحكموا واستقروا على الأرجح فى عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) الغزاة الوافدين. ولعل الذى أوغر صدر فرعون على بنى إسرائيل ربما يرجع أيضاً إلى ما رُكِّب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهية الاختلاط مما حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى أثمروا فيه وتوالدوا منذ أن قدموا إليه فى عهد يوسف عليه السلام. ولعله قد فقد الثقة بهم وشك فى ولائهم له، وقد روت التوراة ذلك فى سفر الخروج (١ : ٧ - ١٠):

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه، هوذا بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

من هنا أخذ يعذِّب بنى إسرائيل ويحمِّلهم ما لا يطيقون من أعمال، فجعلهم خدماً

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير، وتفسير النسفى.

وخـولاً وصنَّفهـم فى أعماله، فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنـف يزرعون له. فهم فى أعمالـه ومن لم يكن له صنعة فعليه الجزية، فسـامهم كما قال الله تعالى سـوء العذاب أو العذاب المهين.

ويشير العهد القديم إلى ذلك كنبوءة لإبراهيم عليه السلام:

«فقال لإبرام اعلم يقيناً أن نسـلك سـيكون غريباً فى أرض ليست لهم ويُستبعدون لهم فيُذلونهم أربعة مائة سنة» (تكوين ١٥ : ١٣).

كما ذكر فى سفر الخروج (١ : ١٤):

«فجعلوا عليهم رءوس تسـخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينة مخازن فيثوم ورعمسـيس. ولكن بحسـما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشـوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إسـرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسـية فى الطين واللبن، وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً».

وعلى الرغم مما يكتنف هذا النص من مبالغة مفرطة فيما جاء على لسـان فرعون من أن بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم من المصريين فكيف يكون ذلك فى مدة لا تتجاوز أربعمائة سنة بقليل وهى المدة التى تمتد من دخولهم مصر فى عهد يوسف عليه السلام إلى خروجهم منهـا كما أشـار إلى ذلك العهد القديم، ولعل الأصدق فـى ذلك أنهم كانوا قلة ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سـورة الشـعراء]، إلا أن هذا النص يشير إلى ألوان العذاب التى كان يذيقها الفرعون لبنى إسـرائيل، والتى زاد عليها كما قلنا بذبح ذكورهم اسـتحياء إناثهم، فأصدر أمراً إلى القوابل: أن من يسـقط فى يدها غلام ذكر تقتله فور نزوله. وزاد فى القتل والتذبيح حتى قال الوزراء له: أفنيت الخدم والحشـم الذين يخدمونك، فأصدر الأمر بقتل الغلمان عاماً وتركهم عاماً آخر[1].

ومـع أن بنـى إسـرائيل لم يكونوا بعد يوسـف - وكذلك عهدهم دائمـاً - على طريقة مسـتقيمة فـى الالتـزام بالتعاليم الدينية، بل مـن المرجح أنهم هبطوا فـى دينهم إلى حد الشـرك، وعبدوا دون الله آلهة من الحيوان والطير. وأغلب الظن أن ما تعرضوا له من ظلم الفرعون كان لوناً من انتقام الله منهم على بغيهم وشـركهم حتى يعودوا إلى التوحيد. غير أن هذا لا يبرر للفرعون اندفاعه فى العذاب وإسـرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على السواء وخطأه أو خطيئته هو ومستشاريه.

---

(١) تفسير الدر المنثور.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة القصص].

إذاً إنه الاستعلاء والتجبر على طائفة من عباد الله، إلا أن هذا الاستعلاء وهذا التجبر لم يدم طويلاً فقد أراد الله لبنى إسرائيل أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة فى الإيمان وورثة للحكمة والنبوة. فقد قال الله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص].

وقد فعل ذلك بهم كما قال تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

ومشارق الأرض ومغاربها أى جهات شرق أرض الشام وجهات غربها قد مُلكت للقوم الذين كانوا يُستضعفون بقتل أبنائهم واستخدام نسائهم، تلك الأرض التى بارك الله فيها بإخراج الزروع والثمار والأنهار والعيون، الأرض التى تفيض لبنا وعسلا. وتمت كلمة ربك الحسنى التى لا خلاف على حدوثها بما كانوا يحبون، وذلك جزاء صبرهم على صنيع فرعون. ودمر الله ما عمل فرعون وقومه فى أرض مصر وما كانوا يعرشون من منازل وقصور.

وهكذا كان جزاءهم فى الدنيا، وليس لهم من مكانة فى الآخرة لما ارتكبوا من مفاسد واستعلاء ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص].

## الإسراف

وترتبط بصفة العلو والاستعلاء صفة أخرى ملازمة لها، ومنعكسة على كل الصفات التى يتصف بها فرعون موسى، وهى صفة الإسراف والتى تعنى لغة مجاوزة الحد. إنه يطغى ويفرط ويسرف فى استعلائه وجبروته ويتجاوز حدود كل شىء. وإنه ليتجاوز الحق إلى الباطل ويجحد بوحدانية الله ويدعى لنفسه الألوهية ويسفك الدماء بغير حق.

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الدخان].

والإسراف من الصفات الممقوته، والتى لا يحبها الله فى عباده حتى فى الطعام والشراب وهو مما يحل للمرء ويحافظ على بقائه؛ فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولعل مؤمن آل فرعون كان أكثر من رصد هذه الصفة لخبرته الطويلة عبر المواقف والسنوات التى تعامل فيها مع فرعون. فنجده ينعته بهذه الصفة وهو يشير إلى ذلك فى سياق اعتراضه على فكرة قتل موسى عندما أراد فرعون قتله مختتماً هذا الاعتراض بالإشارة إلى أن من ركب فيه من الإسراف والكذب فإن الله لا يهديه.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة غافر].

إنه يضيف فى هذا السياق إلى الإسراف صفة ذميمة أخرى وهى الكذب. وفى موضع آخر يشير إلى هذه الصفة مضيفاً إليها صفة الشك والريبة، ففرعون شاك فى وحدانية الله تعالى مرتاب فى موسى ورسالته وذلك فى سياق تذكيره لقومه بما فعلوه مع يوسف عليه السلام من قبل وتحذيرهم من هذا الإسراف والشك.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهو فى استمرار دعوته إلى قومه مذكراً لهم بما حدث للأمم التى كذبت برسلهم من قبل، نجده يطيل فى خطابه ببسالة وشجاعة منذراً قومه بأن المكان الطبيعى لكل من يتجاوز الحدود ومن يسرف فى الضلالة هو النار ويعلن براءته مما يفعل فرعون وقومه.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ

بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

هكذا يكون جزاء من يلتزمون الإسراف والكذب أنهم يعرضون على النار صباحاً ومساء ويقال لهم: هذه منازلكم إذا بعثتم. وقيل يعرضون عليها صباحاً ومساء يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم نقمة وتوبيخا لهم. وقيل إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جُعلت أرواحهم فى أجواف طير سود فهى تعرض على النار كل يوم مرتين «غدوا وعشيا» إلى أن تقوم الساعة[1]. وهكذا كان صدق الوعد من الله إلى رسله وهكذا كان هلاك المسرفين. ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الأنبياء].

## الكبر والتكبر

والكبر أو التكبر من الصفات التى لا يقبلها ولا يحبها الله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[سورة النحل].

وفى الحديث القدسى:

«الكبرياء ردائى فمن نازعنى ردائى قصمته» رواه الحاكم عن أبى هريرة.

«الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة.

وهى صفة أخرى تضاف إلى حزمة الصفات الذميمة التى اُتصف بها فرعون، إنه لا يؤمن أنه سوف يقف بين يدى خالقه ليحاسبه على ما اقترفت يداه، وظن هو ومن معه من جنوده الذين يؤمنون به ولا يعارضونه أنهم لا يرجعون إلى الله.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

---

(١) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى.

ولقد عاين هذه الصفة مؤمن آل فرعون أيضاً. فهو يذكر هذه الصفة فى سياق نصائحه التى يوجهها إلى قومه فى إخلاص يكاد يقطر به دماء قلبه، مذكراً إياهم بفضل الله عليهم وما حباهم به من نعم ومتبرأ مما يفعل فرعون، ومستعيذاً بالله من ذلك المتكبر المغرور الذى يكذب بآيات الله الواضحة ويجادل فيها بغير حق.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة غافر].

إنه ظن أنه فوق المساءلة وفوق الحساب، فهو ليس ككل البشر وكيف ذلك وهو ربهم وإلههم، لقد ختم الله على قلبه فكيف تكون الهداية وكيف يكون الإيمان.

وعادة ما تصاحب صفة التكبر فيه صفة الجبروت كما عاينها ذلك الرجل المؤمن، فهو جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب الله وعقابه. أو قد تكون هذه الصفة مصحوبة بالاستعلاء على عباد الله ويشاركه فى ذلك ملؤه أى آله أو قومه ومن ساروا على نهجه وكانوا عوناً للشيطان عليه مثل قارون وهامان، فالآيات التالية تشير إلى مشاركة كل هؤلاء له فى الاستكبار:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة يونس].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

لقد استكبر هو وجنوده عن عبادة الله رب العالمين وعن اتباع الحق، وطغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد، واشترك معه أيضاً فى الكبر والاستكبار من كانوا على مذهبه وفرعونيته قارون وهامان، كما فى الآية الكريمة:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة العنكبوت].

ومما يلفت النظر أن الفعل «استكبر» على الإفراد ذكر فى القرآن فى أربعة مواضع منها اثنان اختص بهما إبليس عليه اللعنة:

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة ص].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[سورة البقرة].

وموضع للدلالة على فرعون:

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة القصص].

والرابعة فى الوليد بن المغيرة ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة المدثر].

أما لفظ متكبر فلم تذكر فى القرآن سوى فى موضعين الأول على لسان سيدنا موسى عليه السلام للدلالة على فرعون.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

والآخر على لسان مؤمن آل فرعون للدلالة أيضاً على فرعون.

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

ترى ماذا كانت عاقبة هذا التكبر وهذا الاستكبار، إنها جهنم وبئس المصير إنها مثوى كل متكبر.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الزمر]. بلى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

فها هى ذى جهنم تفتح أبوابها وذراعيها لفرعون وآله ليعرضوا على النار غدواً وعشيا، ولتكون مثوى لهم ولمن على شاكلتهم من المتكبرين المستكبرين.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

## الظـلم

والظلـم هو الجور ومجاوزة الحد، أو وضع الشـيء في غير موضعه[1]. ولقد جار فرعون على بنى إسـرائيل وسامهم سوء العذاب، وتجاوز حدوده مع موسى عليه السلام وهو يعلم أنه رسـول الله إليهم، بل ومع رب العالمين فصار من الظالمين.بل لقد ظلم نفسـه أو ظلمته نفسـه بادعائه الالوهية وتكذيبه بآيات ربه لقد جاءته آيات ربه فقد فأعرض عنها، أليس في هذا ظلم بيّن.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سـورة السجدة].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [سـورة الكهف].

إنه لا ينسى ما تقترف يداه فحسب بل يتناسى عمداً ويتجاهل عن قصد كل هذه الآيات التي لا يمكن التعامي عنها. لقد ران على قلبه وكَأنَّ في أذنية وقرا فلم يهتدِ أبدا.

ولقد كان لقومه أو حاشيته جزء من هذا النصيب فصاروا مشاركين له في الظلم بالآيات الكثيرة المتعاقبة على الرغم من أنهم يوقنون بصدق موسى وبصدق ما جاء به من آيات.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النمل].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولقد شاهد موسى هذا الظلم من فرعون وحاشيته، ورآه أمام عينيه طوال المدة التي قضاها في القصر الفرعوني وقبل بعثته وتكليفه بالرسـالة. فنـراه يدعو الله وهو خارج من المدينة خائفاً يترقب أن ينجيه من القوم الظالمين.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة القصص]. لقد أراد موسى أن ينتصر لهذا المظلوم الذي اسـتغاث به ولم يشـأ أن يقتل القبطي ولم يتعمد ذلك. وعندما

---

(١) المعجم الوجيز.

قُـدِّر له النجاة ووصل إلى مدين، وقص على النبى أو الرجل الصالح «شـعيب» قصته وأنه مطارد ومطلوب دمه، طمأنه بنجاته من القوم الظالمين:

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سـورة القصص].

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وعندما جاءهم موسـى بالهدى والبينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى، وأنهم لم يسمعوا بهذا فى آبائهم الأولين. فأشار موسى فى رده عليهم بأن هذا ظلم منهم وأنه لم يدع ما جاء به بل هو رسول من رب العالمين حقيق على ألا يقول إلا الحق والله يعلم أنه جاء بالهدى وأنه لا فلاح للظالمين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة القصص].

ولقد لمس بنو إسـرائيل هذه الصفة فى الفرعونية وقاسـوا منها الكثير. إنهم فى توكلهم على الله يتوجهون إليه بالدعاء ألا يسلط فرعون وحاشيته عليهم فيزدادوا فتنة أو يفتنونهم ويضلونـه، طالبين من الله ألا يعذبهم بأيـدى قوم فرعون ولا بعذاب من عنده، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما سُلطنا عليهم ولا عذبوا فيفتنوا بنا، ذلك أنهم قوم يتجاوزون الحدود فهم ظالمون.

﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة يونس].

بل إن زوجة فرعون نفسـها قد لمسـت هذه الصفة فيه وفى حاشـيته فطلبت من الله أن ينجيها منه ومن ظلمه فقالت:

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]. وإن الكذب بالآيات الواضحة والكفر بها لظلم واضح لا مراء فيه:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ

ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال]. وكانت العاقبة التى أخذه الله بها نكال الآخرة والأولى (الألوهية والربوبية) هو ومن عاونه من حاشيته، وجنوده جزاء اشتراكهم له ومعاونتهم إياه فى هذا الظلم البين.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

إن الله يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة هود].

## احتقار الآخرين والسخرية منهم والاستهزاء بهم

إن استعلاءه وتكبره دفعاه إلى احتقار الآخرين والسخرية منهم والتقليل من شأنهم. إنه فى هذا أيضاً يسرف ويتجاوز الحدود فيتعدى استعباده وتعذيبه لبنى إسرائيل واحتقاره لهم إلى موسى نفسه.

فها هو ذا يستهزئ ببنى إسرائيل ويصفهم بأنهم إن جاز لنا ما يدرج على ألسنة العوام «حثالة» فيقول فى استعلاء:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

أى طائفة قليلة لا يحسب لها حساب وقلة لا يقام لها وزن. والشرذمة الجمع الحقير القليل والجمع شراذم، وقيل الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشىء، وثوب شراذم أى قطع[1]. أما الغيظ فهو تغير يلحق الإنسان من مكروه يصيبه، وأصل هذه الكلمة فى المصرية القديمة غاوت بمعنى غاضب، وظهرت فى عصر الدولة الحديثة.

إنه يهوِّن من هؤلاء القوم فى تعمد منه. فهم فى نظره حفنة قليلة لا وزن لها ومع ذلك لا يخلو هذا التهوين من التخوف الذى يلازمه التحذير حتى لا يؤدى هذا التهوين إلى عدم الحيطة والاهتمام فيزداد الخطر.

(١) المعجم الوجيز.

ولعل هذه الصفة توضحها الآيات القرآنية بجلاء عند تناولها للحوار بينه وبين موسى عليه السلام فيقول:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

إنه يوصفه بالجحود والكفر على الرغم من أن موسى ذلك الرسول الكريم إنما جاء بالهدى والرشاد والنجاة. ويعود فيذّكر موسى بما كان له ولآبائه من فضل عليه، مستنكراً أن يكون هذا الذى يدعو إليه جزاءً لهذا الإحسان والتفضل. ويذّكره بما ارتكبه من جريمة قتل المصرى، وكفره وجحوده بما وهبته له هذه البلاد من مأوى له ولأهله، وما أعطته من نعم، فهو الآن من الكافرين لنعمته عليه وتربيته إياه هو أو آبائه.

وقد يلجأ إلى ما يلجأ إليه العاجز من السباب، فيتبع هذه الإهانة لموسى بإهانة أخرى، فيعايره بفقره وضعفه أو قلة شأنه، وأنه لا ملك له ولا مال ولا سلطان أمام سلطانه الواسع وملكه لمصر وما فيها من أنهار وكنوز. فنجده يفتخر أمام قومه بملكه لمصر تلك التى كانت فى أوج عظمتها وكانت جنات وأنهارا لا ينازعه فيها أحد. فلقد كانت للنيل أذرع كثيرة منها ما يجرى تحت قصوره فيتباهى بهذا المُلك وهذه العظمة فى إشارة إلى هوان موسى عليه السلام وفقره:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

إنه يقول لقومه ألا ترون ما أنا فيه من العظمة والمُلك مقارنة بهذا الفقير الضعيف، ونراه فى استخفافه واحتقاره يندفع فى وابل من سوء الأدب على الأقل فى الحوار فيصف موسى بأنه عيى اللسان لا يكاد يعبر عما فى نفسه، فلا يفهم السامعون كلامه بينما هو طلق اللسان فيقول:

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

وقيل «أم» زائدة أو بمعنى بل[1]، أى بل أنا خير من «هذا» إشارة إلى موسى احتقاراً منه له، ومضيفاً إلى ذلك احتقاراً صريحاً بقوله «الذى هو مهين» أى حقير أو ضعيف أو لا عز له، يمتهن نفسه لحقارته وضعته. (ولا يكاد يبين) يعنى لا يكاد يفصح عن كلامه للثغته

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، وتفسير الطبرى، وتفسير فتح القدير.

التى فى لسانه أو لا يكاد يفهم. إنه يعايره بعقدة لسانه ذلك العيب الخلقى الذى لازمه منذ صغره. ولعله فى هذا يبالغ على موسى عليه السلام، فإنه وإن كان قد أصابه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة المعروف قصتها. فقد سأل موسى ربه أن يحل عقدة من لسانه حتى يزول ذلك العيب فيُفهم منه ما يقول، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بقدر هذه الحاجة. وقد استجاب الله له فقال ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة. ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى إخبارا عن فرعون عندما عايره بها: «أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين».

ومع هذا فالأشياء الخِلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها. وفرعون لعله يدرى هذا ويعى رسالة ودعوة موسى ويفهمها، غير أنه أراد الترويج والتمويه على رعيته لظنه أنهم جهلة أغبياء[1]، إنه يعيب على العرض لا على جودة المعروض.

ويتحدى موسى أن يملك ولو بعض الأساور من الذهب أو رجالاً وملائكة يحمونه ويشهدون بصدقه ويعاونونه على من يخالفه، قائلاً فى تحد واستهزاء:

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزخرف].

ولعل فرعون يشير ضمناً إلى نفوذ موسى الضعيف أمام نفوذه القوى المستمد من ذلك الثراء وتلك الكنوز الكثيرة من الذهب. ذلك الذهب الذى مكّن للفرعون وللمصريين كثيرا من شئون الحياة، إذا استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده ممن حولهم من أمم وأقطار. فكان أن تمتعوا بفضله بالرفاهية وخفض العيش[2]. ولعل ذلك يمكن الاستدلال عليه مما تم عشية خروج بنى إسرائيل وكيف احتالوا على نساء جيرانهم من المصريين فسلبوهم حليهن ومن ذهبهن ما أتاح للسامرى من أن يخرج لهم عجلاً جسداً له خوار. كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة أن تحرزه بالغارة والعدوان، فامتد بفضله نفوذهم حيث لا تستطيع الجيوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من الولايات. فكان أن تولى الذهب مكان الجيش فى السياسة وإحراز النفوذ. وأصبح

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص ٢٢٩.

المصريون يشترون به الحلفاء فى آسيا إذا فشل السيف. ولا يتوقف الحال من الإعزاز بالذهب على امتلاكه فحسب بل وعلى ما وصلت إليه تكنولوجيا استخراجه وفنون صياغته وتشكيله التى برع فيها المصريون براعة ملحوظة. كما أنه السلعة التى لا تبلى ولا ينطفىء بريقها. فلا عجب هنا من أن يفتخر الفرعون بأساور الذهب (صورة ٣ و ٤).

ويعود فرعون فيوصم موسى بالكذب فى إطار من السخرية عندما يطلب من وزيره هامان أن يبنى له صرحاً عالياً ليرى إله موسى، قائلاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

والصرح هو كل بناء عال وجمعه صروح. وأصل كلمة صرح فى المصرية القديمة Srh «سرخ» بمعنى واجهة قصر أو بوابة معبد، وظهرت فى الأسرة الثامنة عشر، وتعنى بالعربية البناء العالى الذاهب فى السماء كما يحددها المعجم الوسيط. الجزء الأول.

ولقد طلب فرعون من وزيره أن يبنى له برجاً عالياً من الطوب المحروق أى الآجر. ليصعد عليه فى السماء ويرى إله موسى! إمعاناً فى تكذيب موسى والاستهزاء به.

وكلمة أسباب أصلها فى المصرية القديمة isbt «اسبت» بمعنى «قبة السماء» وظهرت هذه الكلمة فى عصر الأسرة الثامنة عشر فى نصوص تل العمارنة، وهى تعنى فى العربية الفصحى كنه أو سر السماوات[1].

وقيل إنه بنى فعلاً بناء عالياً وصعد عليه ثم نزل فقال للناس، لم أجد الإله الذى يقول به موسى وعليه فهو من الكاذبين. وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى، وقيل: إنه لما بنى الصرح ارتقى فوقه وأمر بنشابة فرمى بسهم نحو السماء فرد إليه وهو مضرج دماً فقال قتلت إله موسى[2]، وكذلك زُيِّن له سوء عمله، وتعالى الله عما يقول.

بل إنه يتجاوز الحدود فى سوء أدبه فيوصم موسى باعتلال العقل نافياً أن ما جاء به يتفق والمنطق، وواصفاً إياه أنه يتكلم بكلام لايعقله ولا يعرف صحته. وكان عندهم أنه من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل. أو ربما يحاول أن يلصق به تهمة الجنون فلا يعقل ما يقول، قائلاً فى سخرية وموجهاً حديثه إلى ملئه.

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالسئول فى مصر فى الفترة التى عاش فيها. مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات].

وأعرض فرعون عن الإيمان وتولى بركنه أى بما كان يتقوى به من عز وجنود، والركن هو اسم لما يُركن إليه أو يعتمد عليه ويُتقوى به. ونسب ما جاء به موسى من معجزات وآيات إلى السحر أو الجن. وقال عن موسى: إنه ساحر يسحر عيون الناس أو مجنون به جنة. وقيل: إن «أو» هنا بمعنى الواو لأنه قد قال ذلك جميعا، كقوله تعالى: «ولا تطع منهم آثما أو كفورا»[1].

وبعد أن انقطعت حجته بالبيان والعقل، ونفد صبره نجده يتجاوز السباب اللفظى والسخرية من موسى واحتقاره له إلى الاستعلاء والتجبر بالوعيد والتهديد واستعمال بطشه وسلطانه فتارة بالسجن:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ما هذا إلا إرهاب الفرعونية المتوقع. ويقال: إن سجن فرعون كان مخيفاً وفظيعاً وأشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان تحت الأرض وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه أحداً[2] ولا يخرجه حتى يموت[3].

ولقد كان للقدماء المصريين سجون ولكنها لم تستعمل إلا لحجز من ينتظرون الإعدام، والحجز الوقائى. وفيما عدا ذلك لم تستعمل تلك السجون إلا لإيواء المحكوم عليهم بالعمل الإجبارى وفى أشغال الرى والمناجم والحقول[4]، وهو ما يسمى اليوم بالأشغال الشاقة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى حال السجن والسجين فى سورة يوسف وأنه كان مع ذلك يُقدم له الطعام يومياً، وقد يقول البعض بأنه قد يختلف حال السجن بحال الجريمة ومقدار العقوبة، ويمكن الرد على ذلك بأن الجريمة التى اتهم بها يوسف لم تكن هينة فقد كانت متعلقة بشرف وسمعة العزيز، وجريمة صاحبيه كانت متعلقة بالملك نفسه. غير أنه يمكن القول أيضاً بأن قسوة العقاب والتشديد فى تنفيذه قد تختلف من حكم إلى آخر ومن زمن إلى آخر حيث اختلف زمن موسى عن زمن يوسف عليهما السلام.

ويعود فيهدد الفرعون موسى ولكن بالقتل هذه المرة سائلاً خاصة قومه أن يسمحوا له

---

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير فتح القدير.

(٤) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٢٦.

ويطلقوا يده فى قتل موسى، وربما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب. وهو فى هذا يتظاهر بالإشفاق عليهم، ويدعى أنه يخشى أن يضل موسى الناس ويغير نمط حياتهم وعاداتهم؛ فيسوى بينهم وبين عبيدهم من بنى إسرائيل، ويوقع بين الناس الخلاف والفتنة. أو أنه يقصد بالإفساد فى الأرض ترك عبادته إلى عبادة الله الواحد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة غافر].

ونتيجة لهذا التهديد المستمر يلجأ موسى إلى ربه معتصماً ومستجيراً به من أن يؤذيه هو أو قومه شتماً أو رجماً بالحجارة فيقول:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الدخان].

إنه يستعيذ بالله الذى خلقه وخلقهم من أن يصلوا إليه بسوء من قول أو فعل، من سب أوشتم أو رجم بالحجارة أو تهديد بالقتل. ويتساءل فى تعجب، عندما اتفق البعض من بنى إسرائيل مع المصريين فى إيذائه مثل قارون وغيره، لماذا يتعدون عليه بالإيذاء مع ما يحمله لهم من الهداية والرشد. ومع صدقه فيما جاءهم به من الرسالة:

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ ﴿٥﴾﴾ [سورة الصف].

ويأتيهم بالآيات الواضحة فيضحكون فى سخرية مجنونة:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الزخرف].

إنهم بهذه السخرية الفجّة يهلكون أنفسهم فى بلاهة عجيبة.

ويطلب منهم فقط أن يرسلوا معه عباد الله من بنى اسرائيل ويطلقوهم من العذاب، وهو الأمين فيما يبلغ عن ربه من رسالة.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الدخان].

فلا يستجيبون له، وأمام هذا الإعراض وهذا الإيذاء والسخرية، يطلب منهم موسى ما داموا لا يصدقونه ولا يؤمنون به ألا يتعرضوا له. وأن يكفوا عن أذاه ويتركوه وشأنه. وأن يكون فى معزل عنهم فلا يكونوا معه ولا يكونوا ضده. وأن يكون هناك اتفاق للهدنة والمسالمة إلى أن يقضى الله بينهم.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الدخان].

ولما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم دعا موسى ربه إذ كذبوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤدوا إليه عباد الله، وهمُّوا بقتله، ويستقوون بمالهم وسلطتهم عليه. بأن هؤلاء يعنى فرعون وقومه قوم مسرفون فى الذنوب مشركون بالله كافرون به ولا أمل فيهم.
﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الدخان].

## الإجرام وشهوة الانتقام

أجرم أى اقترف ذنباً، وفرعون لم يقترف ذنباً واحداً، إنها جرائم وذنوب كثيرة فى حق نفسه ثم فى حق قومه وفى حق بنى إسرائيل.

إن تكذيبه بالآيات وعدم إيمانه بها على الرغم من وضوحها وتعددها وتتابعها، وتماديه فى العناد، وتعذيبه لبنى إسرائيل، واستعلائه على الغير، وظلمه ومجاوزته للحدود وغيرها مما اقترف، جميعها ذنوب اقترفها فى حق نفسه فصار من المجرمين.

والظلم لون من ألوان الإجرام وهو درجات أعلاها وأشدها عتواً الافتراء على الله، كادِّعاء الالوهية والربوبية وهو محض افتراء وإجرام واضح. كما يندرج تحت طائلة الإجرام التكذيب بالآيات الواضحة والتى لا لبس فيها. فهل مع هذا الإجرام يمكن أن يكون الفلاح فى الدنيا أو الآخره.
﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة يونس].

إن فرعون أجرم لا شك فى ذلك واشترك معه فى هذا الإجرام من ساعدوه من آله، ومن يحيطون به مثل قارون وهامان. ولم يقوموا بما يتوجب عليهم القيام به من محاولة إثنائه عن غيه مثلما كان من ذلك الرجل المؤمن من آله. بل نجدهم على العكس من ذلك يرون الآيات أمامهم ثم يشتركون معه فى التكذيب بها والتعالى والاستكبار عن الإيمان بالله ليجمعهم الإجرام فى خندق واحد. قال تعالى:
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة يونس].
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

كما أشار القرآن إلى أن قارون، الذى كان من قوم موسى وكان من أقرب الأصدقاء إلى الفرعون، كان من طائفة المجرمين بتعاليه واغتراره وتكذيبه.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة القصص].

ولقد أشار القرآن إلى هذه الصفة فى فرعون وذلك فى بيان صريح على لسان موسى تعليقاً على ما حدث من أمر العصا والسحرة يوم الزينة والهزيمة الفاضحة للفرعون، فقال تعالى:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يونس].

وهذا ما أكده السحرة أيضاً وهم يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم ويرغبونه فى ثوابه الأبدى.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة طه].

فهو بحق العدو المجرم الذى كان لنبى الله موسى عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة الفرقان].

وتعددت أوجه إجرامه. فقد أجرم فى حق قومه بتضليله لهم وتخويفهم من اتباع موسى وإرهابهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة يونس].

والذرية القليل أو هم أولاد الذين أرسل إليهم من طول الزمان ومات آباؤهم. ولقد اختلف فى الهاء التى فى (قومه) قيل: هى راجعة إلى موسى وأراد بهم ذرية قليلة من بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر آمنوا بموسى وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم[1].

وقيل[2] الهاء راجعة إلى فرعون فهم أناس يسيرون من قوم فرعون آمنوا بموسى منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه وماشطة ابنته. وقيل: هم أقوام آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل[3].

(١) تفسير الطبرى.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) تفسير فتح القدير.

وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى إسرائيل كانت المرأة من بنى إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا من القتل فنشأوا عند القبط وأسلموا فى اليوم الذى غلبت السحرة. وسموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل[1].

وفى الحالتين سواء كانوا من بنى إسرائيل أم من المصريين فإن القوم كانوا يخشون الفرعون وبطشه وإجرامه.

وأمام إجرام فرعون وقومه، إذ كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يؤدوا إليه عباد الله وهموا بقتله، لم يجد موسى عليه السلام إلا أن يتوجه إلى ربه بالدعاء واصفاً إياهم بالإجرام.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الدخان].

ولعل صفة الإجرام فى الفرعونية تظهر بوضوح فى تعامل فرعون مع السحرة، ومع من آمن بموسى من بنى إسرائيل. فنجده يتفنن فى التنكيل بالسحرة مبدعاً نوعاً جديداً من القتل لم يكن معروفاً من قبل. وهو التصليب على جذوع الأشجار وقطع الأيدى والأرجل من خلاف، أى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس. فهو أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف[2].

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

لقد تملكته شهوة الانتقام المسعورة من هؤلاء الذين خذلوه، والذين رأوا الحق أمام أعينهم فاتبعوه وآمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم دون استئذان منه. فكان جزاؤهم هذه الجريمة الغريبة والعقوبة المستحدثة التى تفتق حقد فرعون عنها. فلقد اتبع المصريون القدماء طرقاً مختلفة لتنفيذ عقوبة الموت كالخوزقة وقطع الرقبة والحرق والإغراق والافتراس بواسطة أحد الحيوانات المفترسة[3].

وفى الجرائم الأخرى كانت عقوبة البتر أو قطع العضو المتسبب فى الجريمة مثل جدع الأنف أو بتر الأذنين أو قطع اليدين أو قطع اللسان أو عقوبة الكى بالنار بالإضافة إلى عقوبة الضرب التى تعتبر عقوبة تعزيرية يقرها القانون المصرى كعقوبة للجرائم غير الكبرى. كما عرف المصرى القديم الضرب كعقوبة جسدية تمثلت فى عدد معين من الضربات كمائة

(١) تفسير البغوى.

(٢) تفسير النسفى، وتفسير ابن كثير.

(٣) مذل محمود محمد محمود، الجريمة والعقاب فى مصر القديمة، مطبعة المجلس الاعلى للآثار، ٢٠٠٤.

أو مائتى ضربة ربما اختلفت تبعاً لدرجة الجرم[1]. هذا بالإضافة إلى عقوبة العزل من المنصب أو النفى، والعقوبات السالبة للحريات مثل عقوبة السجن والتى كانت عقوبة لمجموعة من الممارسات الإجرامية هى الاعتداء على الآخرين بالضرب. والهروب من الأعمال العسكرية أو الأعمال العامة المتعلقة بحقوق الدولة على مواطنيها، وعقوبة الأشغال الشاقة «العامة» فى المحاجر. وكان اختيار وسيلة التنفيذ يخضع لتقدير القاضى. ربما كان ذلك وفقاً لطبيعة الجرم وأحيانا كانت هذه العقوبة يصاحبها وسائل تعذيب كالحرق مثلاً.

ولم ترد مثل هذه العقوبة الغريبة التى ابتكرها الفرعون مع السحرة إلا فى هذا الموضع وكانت سُنَّة اتبعها بعض المجرمين فى التاريخ الإنسانى من بعده. وأمام هذا الانتقام المتحفز للفرعون كان الثبات على الحق، فقال السحرة:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ويثبت السحرة على إيمانهم وموقفهم رغم كره الفرعون وحاشيته.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

ومن جملة ما اقترف فرعون من آثام مع بنى إسرائيل إيذاؤه لهم واستعبادهم وإذلالهم وقتل أبنائهم قبل بعثة موسى لقول بعض الكهنة له أن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يكون سببا لذهاب ملكك، ويشترك ملؤه ومن هم على دينه فى ذلك معه.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة إبراهيم].

وفى سفر الخروج (١ : ٢٢):

«ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، وكل بنت تستحيونها».

نعم إنه كرب وابتلاء عظيم. عبودية وعذاب وذبح للأبناء واستبقاء النساء للخدمة.

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة. المرجع السابق.

وهذا الإجرام والإذلال بعد أن هدأ وسكن فترة من الزمن، يعود مرة أخرى بعد بعثة موسى عليه السلام فيتدرج من التهديد الصريح ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف] إلى اتخاذ القرار بالقتل فها هى ذى شهوة الانتقام والإجرام تتلبسه فتعميه وتضله فيأمر ملأه:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

إنهم الآن يشرعون فى التنفيذ ويشاهد بنو إسرائيل أبناءهم وهم ينتزعون من بين أيديهم ليذبحوا أمام أعينهم، إنه لأمر عظيم. وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى كان لوناً من الإذلال و «التركيع» لبنى إسرائيل الذين رأوا فى بعثة موسى مع هذا الإجرام المستمر أنها تنقذهم مما هم فيه من الشقاء والعذاب والإيذاء.

﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولقد أشار العهد القديم إلى هذا فى لغة لا ترقى إلى لغة خطاب نبى لربه فقد جاء فى سفر الخروج (٥ : ٢٣) على لسان موسى:

«لماذا أرسلتنى فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلص شعبك».

وأمام هذا الإجرام السافر من الفرعونية والعذاب المستمر. يطلب بنو إسرائيل من موسى أن يكف عنهم فيخدموا المصريين فلا يتعرضوا لآذاهم. ولا يطالبهم بالخروج، وهذا ما أشار إليه العهد القديم من كلام على لسان بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر.

«أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية». الخروج (الإصحاح ١٢ : ١٤).

ولقد تعدى هذا الإجرام أو أوشك إلى موسى عليه السلام فيحاول فرعون أن يستصدر قانوناً يبيح له قتل موسى أو إباحة دمه.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ويبدو أن فرعون كان يهاب موسى ويخشى على نفسه من مغبة الاعتداء عليه ربما لإيمانه

الداخلى بقوة موسى المستمدة مما يدعو إليه من الحق وإلا لأمكنه تنفيذ ذلك بسهولة دون الحاجة إلى الاستئذان أو محاولة استصدار قرار بذلك. فنفهم من النصوص القديمة أن التعرض للفرعون بالقول الذى لا يليق به أو سبه كان أمراً بالغ الخطورة[1]. وقد سجلت قطعة اوستراكا بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O. Cairo 25556 من عهد سيتى الأول قضية حاول فيها الملاحظ «حاى» أن ينفى هذه التهمة الخطيرة عن نفسه، فذكر أن ثلاثة عمال وامرأة قد اتهموه بأنه شتم الملك الحاكم: «هم قالوا أشياء بخصوص جلالة الفرعون له الحياة والصحة والعافية ضد حاى: هو نطق شتائم ضد سيتى».

ثم ذكر المدَّعون فيما بعد أنهم لم يسمعوا مثل هذه الكلمات من الملاحظ، وأنهم ليس لديهم اتهام يحضرونه ضده. وهو ما يوضح مدى حرص الملاحظ على نفى مثل هذا الاتهام عنه، والنجاة بنفسه مما يمكن أن يصيبه من جرَّاء مثل هذه التهمة. وهذا ما يتطابق مع ما سجل فى الاعترافات الإنكارية فى كتاب الموتى إذ يذكر المتوفى «لم أعب فى الذات الملكية».

كما كانت مخالفة أوامر العرش من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام ولعل ما يثبت ما نقول من خشية الفرعون موسى وتردده فى قتله أنه (هو أو أبوه من قبله) قد أصدر أوامره للآباء من بنى إسرائيل بالإبلاغ عن أطفالهم الذكور فور ولادتهم وأن عقوبة الموت تنتظر من يخالف أوامره.

ونظراً لبشاعة الجرائم التى ترتكب ضد الفرعون أيا كانت صورها وأشكالها، فقد قضى المشرع المصرى القديم بألا يدفن مرتكب هذه الجرائم فى مقبرة، إشارة إلى حرمانه من الحياة الأخروية، فذكرت لوحة بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O. Cairo 20538 من عصر الدولة الوسطى "لا توجد مقبرة لمن يرتكب جريمة "يثور" ضد جلالته. جثمانه سيلقى فى النهر".

أو ربما أنه يريد بقوله «ذرونى أقتل موسى» أنه يريد قتله بتهمة قتل القبطى تلك التهمة القديمة. فلم تكن عقوبة الإعدام أو القتل توقع إلا على الجرائم الخطيرة والتى وصفها المصرى القديم بأنها جرائم عظمى تستحق الموت، كما وصفت أيضاً بأنها فساد كبير فى الأرض وما يمقته كل الآلهة جميعاً. ويأتى على رأس هذه الجرائم جريمة القتل العمد وكذلك من يتواطأ مع القاتل أو يمتنع عن مساعدة القتيل «القتل بالامتناع» أو التستر على القاتل وعدم الإبلاغ عنه. كذلك جرائم الخيانة العظمى التى توجه للفرعون بكل صورها وأشكالها كالتآمر على قلب نظام الحكم أو إفشاء الأسرار الملكية أو مخالفة أوامر العرش.

---

(١) منال محمود محمد محمود، المرجع السابق.

وقد فرق القانون المصرى القديم تفرقة واضحة بين القتل العمد والقتل الخطأ، ولقد توصل المصريون القدماء إلى فكرة العمد الجنائى بتعبيرنا الحديث مع سبق الإصرار والترصد. وهو تعبير يحمل فى طياته توفر عنصر النية والقصد التى تسبق الفعل. فوثيقتى Rollin و Lee (عهد رمسيس الثالث) قد حكت لنا المؤامرة التى دبرت لاغتيال رمسيس الثالث وما حاق بالجناة من جزاء، فقد أشارت أيضاً إلى ما يفيد القصد الجنائى والنية المبيتة العمدية فى محاولة قتلهم رمسيس الثالث حيث يذكر النص:

«لقد حقق معه ووجدت الحقيقة فى كل اعتداء وكل جريمة نوى قلبه أن يفعلها». فيؤكد تعبير «نوى قلبه أن يفعلها» توفر عنصر النية فى ارتكاب الجرائم وأن الواقع قد صدق على ما قد وقر فى القلب فالنية يصدقها العمل. وكان القلب يمثل فى نظر المصرى القديم العقل الذى يدبر به الأعمال وهو موضع النوايا ومحلها.

وكان القتل العمد الذى يتوفر فيه عنصرا الإصرار والترصد يجازى فى مصر القديمة بعقوبة الموت الكبرى أو الإعدام. وقد علل ديودور الصقلى ذلك بقوله: «إن المصريين كانوا يستفظعون ذلك الذى كان يعتدى على جسد أحدهم».

ولعل ما ورد فى القرآن الكريم ووصفه هذه العقوبة كجزاء للقاتل تعد أعلى الوثائق صدقاً وأعلى النصوص التى توفر لها شرط التواتر التاريخى وهو أعلى درجات الثقة التاريخية لنص ما. حيث يقول عز وجل على لسان موسى عندما فر هاربا خوفاً من أن توقّع عليه عقوبة الإعدام كجزاء لقتله المصرى.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

هذا الذى توضحه الآية الكريمة:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القصص].

على أن موسى بانتصاره للذى هو من شيعته وقتله المصرى (القبطى) قد تورط فى قتل عن غير عمد، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل. فخاف أن يطلب القصاص منه بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ففر هارباً من مصر. ثم عاد إليها بعد حين من الزمن ربما بعد أن سقطت العقوبة أو الدعوى الجنائية بالتقادم أو بمضى المدة[1]. وإن كنا لم نعرف هذه المدة التى تنتهى بها أو تسقط بها العقوبة، إلا أن ما نعرفه هو أن القتل العمد كان جزاؤه الموت. ونعود إلى صفة الإجرام فى الفرعون فنقول: إن هذا الإجرام شمل كل من آمن بموسى حتى

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، المرجع السابق.

زوجته «آسية». والتى سألت الله تعالى أن ينجيها من إجرامه وتعذيبه فقالت:

﴿ ... رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم].

ولقد عذبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها وألقى على صدرها رحى عظيمة واستقبل بها الشمس[1]، فكانت إذا تفرق عنها من وكل بها ظللتها الملائكة إذ قالت فى حال التعذيب ﴿ ... رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم] (أى وتعذيبه وضلاله وطغيانه واسرافه فكُشف لها فرأته فسهل عليها التعذيب والظلم).

كما لم يسلم من عذابه وإجرامه ماشطة ابنته التى سبق ذكر ما حدث معها. وأوشك هذا الإجرام أن يطول ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذى ينادى بالحق ويحمل لقومه مشاعر الحب ويخاف عليهم من سوء العاقبة. فعندما يئس فرعون من أن يسكت صوته بالرجاء والحيلة، يلجأ إلى إسلوب الإرهاب والإجرام، فيدبر فيما يبدو لقتل هذا الرجل وكتم هذا الصوت، لولا أن وقاه الله سيئات هذا المكر، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وإن سنن الله فى كونه تقتضى أن يحيق بفرعون وآله سوء العذاب. فقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة السجدة].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة يوسف].

فماذا يُتوقع أن يكون الجزاء لهؤلاء المجرمين:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة القمر].

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة مريم].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ

(١) تفسير القرطبى، وتفسير ابن كثير.

فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الصافات].

## التفرد بالرأى أو الديكتاتورية

ويستمر القرآن فى فضح الفرعونية الملعونة، والكشف عن وجهها القبيح وتعرية مثالبها. ومن هذه المثالب إعجاب فرعون برأيه والتفرد به فى ديكتاتورية ظاهرة غافلاً عامة شعبه. غير عابىء بمستشاريه، فلا رأى إلا رأيه ولا علم إلا ما يعلم، متصوراً أو مضللاً لهم أنه يهديهم إلى الحق والرشاد. لقد صادر عقولهم وأفهامهم واعتبر نفسه الوحيد الذى ينطق بالحقيقة والهداية والرشد وما سواه لا يؤبه به ولا يُسمع لرأيه.

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة غافر]. أى ما أريكم أيها الناس من الرأى والنصيحة إلا ما أرى لنفسى ولكم صلاحاً وصواباً، وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ۖ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

إنه لا يجد من حاشيته معارض يرفع صوته بالاعتراض والرفض، ليس فيهم رجل شجاع ينطق بالحق ويتفوه بالصدق ويرفض ألوهيته سوى عدد لا يكاد يذكر، ذرية قليلة. وعلى العكس هناك الكثير والجمع الغفير ممن يتملقه ويطيعه. فيستمر فى تجاهل قومه مستخفاً بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم فهم ينساقون وراءه فى سلبية مفرطة.

ودون مشورة ودون روية أو إعمال عقل يصدر أحكاماً جزافية، فقد حصر رأيه فى موسى بأنه ساحر أو مجنون:

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات].

بل ويستولى على ظنه أحياناً كثيرة أن موسى ساحر وكذاب:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

والظن دون الاعتقاد، ولعل القول بالظن فى كون موسى ساحراً مرة أو كاذباً أخرى هو أسلوب من التشكيك فهو لم يذكر ذلك على سبيل الجزم والحتم. وإنما ذكر ذلك على سبيل التشكيك ليثير الشكوك عند من يستمع لموسى ولمؤمن آل فرعون. غير أنه يعود فيقرر عن موسى فيقول:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وعندما لا يجدى هذا الأسلوب ويثبت فشله يعود فيقرر ويؤكد، بعدما رأى الآية الكبرى والتقاف عصا موسى لعصى السحرة يوم الزينة يوم حشر الناس جميعا، بأن موسى ساحر عليم بفنون السحر وأصوله.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

إنه يروّج معلومات مضللة عن موسى مدعياً عليه أنه ربما يكون مجنوناً مختل العقل، أو أصابه سحر فهو يهذى بكلام غريب ويكذب فى الحديث. بل إنه ساحر وحاذق فى السحر فهو الذى علّم السحرة فنون السحر فهو كبيرهم ومعلمهم.

وتصل به ذروة الديكتاتورية، المصحوبة باعتقاده أو ظنه أنه إله، إلى وضع القيود على حرية المعتقد فنجده يسأل السحرة بعد إيمانهم.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۚ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

إن حرية العقيدة والإيمان فى نظره تحتاج إلى إذن منه. إنها الديكتاتورية الطاغية، التى لا تمنعه من أن يرتدى أحياناً مسوح الديمقراطية ويشاور بطانته وملأه متسائلاً، ومتظاهراً بالشورى أو متحيراً، «أشيروا على فيه ماذا أصنع معه؟»، على الرغم من أنه قد صرّح برأيه فى موسى بأنه ساحر عليم ولكن كيف سيتعامل معه:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ولقد تبعه السادة من قومه موافقين لقوله «إن هذا لساحر عليم» وقالوا كمقالته.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إنها الديكتاتورية التى تجد من يرويها ويشعل نارها ويغذيها ولا تجد من يفضحها ويضرب على يديها.

## اتباعه بطانة السوء واتباعهم له

وكعادة كل عصر ومصر هناك من الحاشية والبطانة من يستفيد من طغيان الحاكم وضلاله، ويزيد النار اشتعالاً حتى يجنى من وراء ذلك ما يزيده ثروة أو سلطة أو منفعة ما.

وهذا ما كان من بطانة وحاشية الفرعون يضلون ويضللون. وقد يحتوى مدلول البطانة هنا على الأهل (آل) أو القوم أو الملأ أو الجنود. وهو ما أشار إليه القرآن فى مواضع عديدة للدلالة على ذلك، ففى ١٣ موضعاً ذكر «آل فرعون»، وفى ١١ موضعاً ذكر «فرعون وملئه»، وفى ٥ مواضع ذكر «فرعون وقومه»، وفى موضعين ذكر «فرعون وجنوده»، وفى ثلاثة مواضع «فرعون وهامان»، وفى موضع واحد ذكر «فرعون ومن معه»، وفى موضع واحد «فرعون وهامان وجنودهما».

ولعل المقصود بكلمة «آل» الأهل والعيال والأتباع والأنصار، والمقصود بكلمة «قومه» أقاربه ومن يكونون بمنزلتهم تبعاً له، أما جنوده فهم أنصاره وأعوانه، مما يدل على أن آل فرعون وملأه وقومه وجنوده كانوا فئة من أعوانه وأتباعه وعشيرته من بنى جنسه ومن بنى إسرائيل وكانوا محدودى العدد. وهذه المعانى جميعاً تشير إلى طائفة أو فئة ممن لم يؤمنوا بموسى ولا تشير إلى شعب مصر جملة. هذه الطائفة أو الفئة نعنى بها البطانة وهى التى تَضِل وتُضَل.

وهؤلاء هم الذين نجدهم يقولون لفرعون متظاهرين بالنصيحة والحرص على مصلحته: أتدع موسى وقومه من بنى إسرائيل كى يفسدوا خدمك وعبيدك عليك فى أرضك مصر، ويدع موسى خدمتك وعبادتك أوعبادة آلهتك. ترى هل هم يشفقون على الفرعون حقاً مما يصفونه من إفساد لموسى وقومه؟!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ

أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

إنهم على الرغم مما يبصرونه من الحق وما يرونه من الآيات يوحون إليه باتباع الضلال، إنهم يدفعونه إلى الهاوية وهو يقودهم إليها. فتارة يحرضونه على موسى وتارة يستخفهم فيطيعونه، إنهم قوم فاسقون حقا. فاستخف عقولهم ودعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، فجمع قومه ودعاهم إلى الاعتراف له بالإلوهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الزخرف]. لقد أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة.

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة طه].

ومع ذلك يتبعون نهجه ويسلكون مسلكه فى الغى. ويسيرون وراءه وليس فى ذلك رشد ولا هدى وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد. وكما أنهم اتَّبعوا أمره فى الدنيا وكان قائدهم وزعيمهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة هود].

وكذلك شأن المتبوعين إنهم يشاركون من يتبعونه فى الإثم، ولهم مثلهم ضعف من العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: « لكل ضعف ولكن لا تعلمون »، حينما يقولون محاولين درء الذنب عنهم والتخفيف مما يجدون من عذاب:

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأحزاب].

إنهم يشاركونه الفرعنة والفرعونية الملعونة، ويحملون ما يحمل من صفاتها. إنهم يشاركونه التكبر والاستعلاء. يشاركونه الظن أو الاعتقاد بأنهم فوق المساءلة فلا يحاسَبون على ما يقترفون. واستكبر هو وجنوده وملؤه فى أرض مصر عن تصديق موسى واتِّباعه إلى ما دعاهم إليه من توحيد الله والإقرار بالعبودية له. وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبعثون ولا ثواب ولا عقاب على الرغم مما فى معتقدات المصريين القدماء من بعث وخلود فى العالم الآخر. فنجدهم وقد ركبوا أهواءهم وعاندوا موسى:

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

[سورة القصص].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

واستغلوا ما وهبهم الله من ثروة وأموال فى الفساد والضلال. ويغرر فرعون بهم ويستغل قلة عقولهم وسخافة أذهانهم فيصدقونه، على الرغم مما رأوا من الحق والآيات وما كان عليه من ضلالة وكفر. فيرون ويرى معهم معجزة اليد ثم معجزة العصا، ثم تتوالى الآيات التسع ولا يؤمنون ويقعون فى مستنقع الفسق بإطاعتهم له.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة النمل].

إنهم يشاركونه فى السخرية من بنى إسرائيل واحتقارهم، وينظرون إليهم على أنهم أدنى منزلة وعبيداً عندهم. ويرونهم مصدر شؤم، فإذا جاءتهم النعمة أو الخصب والسعة والخير ادّعوه لأنفسهم وقالوا لنا هذه؛ وإذا جاء الشر أو الجدب والقحط والبلاء أرجعوه إلى موسى وقومه.

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ومن الملفت فى الآيات القرآنية أنهم يرددون فى ببغائية عمياء ما يقول. فإذا قال عن موسى إنه ساحر كرروا ما قال. إن عقولهم فى آذانهم يرددون ما يسمعون. بل إنهم قد ينصهرون فى فرعونيته فيصير القول واحدا لا تستطيع أن تفرق فيه بين قول فرعون من قول الملأ من قول الشعب، كما فى قوله تعالى:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وإذا كذّب بالآيات قالوا لن نؤمن بها، ويتمادون فى الضلال ويتوعدون بعدم تصديق

هذه الآيات مهما كانت، وهم فى ذلك يحذون حذوه ويسلكون طريقه فى ضلال واضح وتبعية عمياء.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ويبدو أن القوم جميعاً – الملأ والفرعون – قد اتخذوا موقفاً واحداً من موسى عليه السلام إلى الحد الذى يأتى فيه ذكر الفرعون بصفته الأمة كلها.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة ق].

فكل ما جاء ذكره فى الآيات هم أقوام وأمم ما عدا فرعون الذى جاء بينهم بصفة الأمة. إن فرعون وآله وجنوده وملأه أو بطانته يتسربلون فى رداء الفرعونية الملعونة وتتغشاهم.

## إكراه الآخرين وتسخيرهم لخدمته

وتطفو صفات أخرى للفرعونية يمكن إدراكها من إشارات القرآن العابرة، منها ما يمكن أن يستنبط من السياق القرآنى فى قصة السحرة أن فرعون مارس الضغط عليهم، وأكرههم على تنفيذ ما يريد:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

فلقد أكرههم فرعون على تعلم السحر والعمل به فقيل: إنه قد أكرههم على تعلمه صغاراً. فقيل[1] إن فرعون أخذ أربعين غلاماً من بنى إسرائيل فأمر أن يتعلموا السحر بالفرما (العريش الآن). وقال علموهم تعليما لا يعلمه أحد فى الأرض. فكانوا من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

إنه يكرههم ويسخرهم لخدمته، ويستغل سلطته ونفوذه لإطاعة أوامره. ونجدهم يستفسرون أو يتساءلون عما إذا كان لهم أجر مقابل ما سيقومون به من خدمة للفرعون، أو بالأحرى مكافأة لهم إن غلبوا موسى.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

---

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى.

إنهم على ما يعرفون عنه من تسخيره للآخرين لخدمته وتثبيت أركان ملكه دون أجر أو مكافأة فإنهم قد تجرأوا هنا وطلبوا الأجر منه، يتمنون عليه وهو يمنيهم ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء]. وستكونون من المقربين عندى فى المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج[1].

ولعل تجرأهم هذا يرجع إلى استشعارهم مدى حاجته إليهم فى مواجهة موسى ومدى ثقتهم بسحرهم فى تحقيق الغلبة على موسى.

وليس أدل على ما كان يقوم به من تسخير الغير لخدمته ما قام من تسخير بنى إسرائيل لبناء مدينتيه «برعمسيس وفيثوم» اللتين أشارت إليهما التوراة.

«....فبنوا له مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس» (الخروج: ١: ١١).

ولقد أسهبت التوراة فى وصف مدى ما تعرض له بنى إسرائيل من إذلال وتسخير على أيدى الفرعون بأوصاف كثيرة منها المذلة والضيق والاستعباد والأثقال، كما فى الخروج (٣: ٧).

«قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم إنى علمت أوجاعهم».

وفى الخروج (٣: ٩): «ورأيت أيضاً الضيقة التى يضايقهم بها المصريون».

وفى الخروج (٣: ١٧): «فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلا».

وفى الخروج (٦: ٥ - ٦): «وأنا أيضا قد سمعت أنين بنى إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون».

«وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة».

إنه الاستغلال والتسخير لفئة ضعيفة ليس لكونهم فى مرتبة أقل من مرتبة المصريين أو لأنهم أدنى منهم منزلة كما كانوا ينظرون إليهم بل ولأنهم على غير ملتهم وخالفوا عقيدتهم.

## الكيد

الكيد يعنى القصد خفية إلى إيذاء الغير، وكاد فلاناً كيداً أى مكر به وأراده بسوء. والكيد

(١) تفسير النسفى.

من الله يعنى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق[1].

ومن بلاغة القرآن وصفه للسحرة الذين جمعهم فرعون بالكيد دون التصريح بهم فيما يعرف لغوياً بالاستعارة التصريحية حيث يحذف المشبه (السحرة) ويأتى بالمشبه به (الكيد). إنه يجمع كل مكره وحيله وكيده فى هؤلاء السحرة فصاروا علماً على هذا الكيد، وكأنه يجمع كل أسلحته من مكر ودهاء وحيل فى حلبة الصراع هذه.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة طه].

ويتوجه إلى السحرة محاولا أن ينقل هذا الكيد الذى يملؤه ويستولى عليه إليهم، وأن يصير هذا السحر الذى يتسلحون به أيضاً إلى كيد ومكر فيعزمون على الكيد والمكر بموسى من غير اختلاف بينهم فيه.

﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة طه].

وهنا ينتصر الحق على الباطل ويضيع كيد السحرة ومكرهم أمام كيد الله ومكره. ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الطارق].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهكذا يصير كيد فرعون ومكره واحتياله إلى زوال وبطلان وحاق به وبحاشيته ما يريده الله عز وجل.

ومن كيده ما دفعه إلى أن كلف وزيره أن يبنى صرحاً له ليرى إله موسى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

ولقد زيَّن الله له سوء عمله وكان كيده إلى هلاك وزوال.

---

(١) المعجم الوجيز.

## الضلال والتضليل

وهما صفتان جمعتهما فى الفرعونية الملعونة، فقد ضل فرعون عن الهدى وعن اتباع الحق وأضل قومه وما هداهم. فها هو يتظاهر بالحرص على مصلحة شعبه وعلى مقدراته والنعمة التى كانوا فيها فاكهين، وعلى استقرار بلاده وما وصلت إليه من رقى ومقام كريم.

إنه يستخف قومه أو يستفزهم ويدفعهم إلى اتخاذ موقف موحد تجاه موسى متظاهراً بأنهم أصحاب الرأى والمصلحة والموقف، طارحاً ذلك فى استفتاء على الشعب أو على خاصة قومه وملئــه: (فماذا تأمرون)، وكانت النتيجة أن ردوا الموقف إلى فرعون لأنهم ليســوا أهلا لأن يكون لهم رأى أو لأن يتحملوا تبعته. فيردون الجميل إلى فرعون الذى يأخذ برأيهم.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وهكــذا كانت النتيجة لهؤلاء الذين لم يمارســوا الديمقراطيــة ولم يتعودوا إبداء الرأى، وكان لابد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم، وزاد فى ذلك بطمأنتهم على الوضع بأنه قاهر لهؤلاء الشرذمة للتأكيد على أنهم هم أصحاب الرأى والمصلحة.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[سورة الأعراف].

إنه يخاف عليهم من خطر الدعوة التى يدعو إليها موســى ويخشــى عليهم من تبديل دينهم. ويخشى أن يفسد موسى عليهم حياتهم بما يستحدثه من قيم وعادات جديدة.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

غير أنه فى الأصل يخشــى أن تضيع هيبته ومكانته، وأن يهجروا عبادته، ويكتشــفوا زيف ألوهيته، إنها استراتيجية التضليل للفرعونية الملعونة.

ونجده يلجأ إلى حيلة التضليل والخداع بعد أن فشــل فى المحاجاة العلنية، وبعد أن خذله منطقه وسحرته وضعفت حجته أمام موسى وأخيه. فيقول:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

بل ويستهوى ذلك حاشيته وكتيبة التضليل الإعلامى له فيرددون ما يقول، مدعين أن مراد موسى وأخيه هارون أن يجتمع الناس إليهما للوصول إلى الحكم، والاستعانة ببنى إسرائيل فى اجتثاث المصريين وإخراجهم من أرضهم التى يعيشون فيها فى جنات وعيون، ويذهبون بسنتهم وأسلوبهم فى الحياة ومعيشتهم المثلى، أو كما يطلق عليه بعض الغربيين فى عصرنا الحديث "منظومة القيم".

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة طه].

وهو ظن لا شك فى كذبه لأن بنى إسرائيل فى نظر فرعون نفسه ما هم إلا شرذمة قليلون.

ونلاحظ من النصوص القرآنية ضمير الملكية المتكرر «دينكم..أرضكم...طريقتكم». إن فرعون وحاشيته يركزون فى تضليلهم للقوم على نقاط حساسة لديهم كتمسكهم بدينهم وما وجدوا عليه آباءهم، وارتباطهم بأرضهم وموطنهم، وتعلقهم بأسلوب حياتهم والرفاهية التى يعيشون فيها. فقد كانوا يعيشون فى مقام كريم ويرفلون فى نعمة كانوا فيها فاكهين، وهو من الأمور التى يحرصون على الحفاظ عليها والزود عنها ولا يقبلون بتغييرها . فنجده يشوش على هزيمته أمام موسى وإيمان السحرة وكفرهم بألوهيته، بأنهم جميعاً – موسى والسحرة – قد اتفقوا على المصريين ليخرجوهم من هذه المدنية أو المدينة المتحضرة.

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وربما يبغى من وراء قوله هذا التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق، حتى أنه يقول عن موسى وعنهم أنه هو الذى علمهم السحر على الرغم من أن موسى لم يجتمع بهم ولم يجتمعوا به من قبل.

إنه هو وحاشيته يخشون أن يصرفهم موسى عما وجدوا عليه آباءهم فيصير لموسى العزة والكبرياء ومن ثم الغلبة مصرين على عدم الإيمان به، إنه يطرق على نفس المواطن الحساسة لدى القوم.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة يونس].

بل إن فرعون نفسه هو الذى يراوغ ويلفت قومه عما جاء به موسى ويصرف اهتمامهم عن دعوته بمقارنته بين ما يملك من السلطان والملك وما يملك موسى عندما يقول فى غرور واستكبار ومراوغة لرفض الدلائل والبينات التى قدمها موسى:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

إنها آلة التضليل المحكم والتى لا تتوقف ولا تكف.

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة طه].

## الإفساد فى الأرض

أفسد الشيء: أتلفه، وجعله فاسداً أى تالفاً، والفساد هو التلف والعطب، والمفسدة: الضرر، والإفساد هو الشر الظاهر العام[1]. ومن هذا التعريف فإن الإفساد لا شك يشمل الظلم والاستعلاء والتكبر والتجبر والتأله والإجرام والتضليل واستعباد الضعفاء وتسخيرهم فى خدمته، ويمكن القول هو الفرعونية نفسها.

ولقد ذكر لفظ المفسدين فى القرآن فى ١٣ موضعاً. ستة مواضع منها تتعلق بالفرعونية الملعونة، ثلاثة منها تشير إلى فرعون وتضعه فى زمرة المفسدين وذلك فى الآيات التالية:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة يونس].

وفى موضع واحد للإشارة إلى فرعون وملئه وظلمهم بالآيات.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وفى موضع واحد للدلالة على فرعون وقومه، وذلك فى قوله تعالى:

(١) المعجم الوجيز.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل].

وهنـاك موضـع يفيد بأن قارون قد صاحب الفرعون وشـاركه فى هذه الصفة حيث لمس الناس منه ذلك ونصحه قومه فقالوا له:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سـورة القصـص]، غير أن تماديه واتباعه للفرعون فى الفسـاد والإفسـاد كان من نتيجته أن خسـف الله به وبداره (أو قصره) الأرض، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فليس له نصيب فيها.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص].

ونعـود للفرعون الذى أفسـد فى الأرض، أرض مصر، فقتل من لا يسـتحق من القتل، واستعبد من ليس له استعباده، وتجبر فى الأرض على أهلها وتكبر على عبادة ربه، وجعل الناس شيعاً وفرقاً فيفضِّل طائفة على أخرى ويذيق طائفة منهم أشد العذاب فيقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم.

والحقيقة أن بنى إسرائيل تحت فرعون كانوا يعانون من بلاءٍ واختبار عظيم من ربهم، فلقد اسـتضعفهم الفرعون وسـامهم العذاب الشديد. ذلك العذاب الذى وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم بـ «سوء العذاب» تارة وبـ «العذاب المهين» أو «البلاء» تارة أخرى. فقد وُصف العذاب بالسـوء فى القرآن الكريم فى تسـعة مواضع منها ثلاثة تتعلق بالعذاب الذى أذاقه فرعون لبنى إسرائيل وذلك فى الآيات التالية:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة البقرة].

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [سورة الأعراف].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة إبراهيم].

ويبدو أن جبلّة بنى إسرائيل وما رُكّب فيهم من طباع استوجبت أن يتعرضوا من حين إلى آخر لسوء العذاب، وكتب الله عليهم ذلك حتى يوم القيامة، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وبالإضافة إلى ما وُصف به هذا العذاب الذى لاقاه بنى إسرائيل على يد فرعون بأنه سوء العذاب، والذى يتفق فى صفته مع ما سيلاقيه الكفار يوم القيامة. فإنه قد وُصف أيضاً فى القرآن بـ «العذاب المهين» (بالتعريف دون التنكير). وهذا الوصف للعذاب (المهين) ذكر فى موضعين فى القرآن الكريم: اختص أحدهما بوصف العذاب الذى تعرض له بنو إسرائيل على يد الفرعون.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الدخان].

واختص الموضع الآخر بوصف العذاب الذى كانت تعانيه الجن تحت سليمان عليه السلام.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة سبأ].

ولعل الإفساد يشمل الكثير من الأفعال والتصرفات، فإن من يسعى فى أرض الله بما يكره الله ويجهر بمعصيته، ويستعين بالسحر وهو تمويه لا حقيقة له ضد الحق الظاهر فإنما يفسد فى الأرض، وإن الله لا يصلح عمل المفسدين أبدا.

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة يونس].

وإن من يرى الآيات تتوالى أمامه واضحة جلية لكل ذى عينين ولا يؤمن بها، وخاصة إذا كان صاحب سلطة ومكانة كفرعون وحاشيته وذا تأثير على جموع الشعب والجماهير المغلوبة على أمرها، ثم يستخدم هذه السلطة لفرض رأيه وإجبار هذه الجموع على اتباعه، هو إذاً يفسد فى الأرض ولا ريب.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النمل].

وعندما يطغى الفساد ويستفحل ولا يجد له رادعا يستوجب العقاب العاجل الذى لابد منه، فيكون العذاب صبًّا.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الفجر].

وتنكشف طبيعة المفسد عندما يحين العقاب وتكون العاقبة، فنجده يجهر بالتوبة حيث لم يبق له اختيار وقد قضى عمره فى إفساد مستمر.

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس].

إن هذا لا يعقل ولا يكون.

## العناد والكفر بالآيات

بدأ موسى عليه السلام بتبليغ رسالته التى كلفه الله بها وبصحبته أخوه هارون إلى فرعون فى حديث هادىء لين. وكانت الرسالة ذات شقين الأول منها دعوة فرعون إلى الإيمان، والثانى المطالبة بإطلاق بنى إسرائيل ليخرجوا من مصر. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وفى العهد القديم «ثم كلم الرب موسى قائلاً، ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه» (الخروج ٦: ١٠ - ١١).

فأخذ فرعون يفتش فى ذاكرته عما يتعلق بمن جاء له بدين جديد ليغير عليهم نظام حياتهم، فسرد على موسى ماضيه وكيف تربى فى البيت الفرعونى وكيف أحسنوا إليه:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يرد موسى متسائلاً كيف يمنُّ عليه وحده بالتربية، بينما يذيق قومه سوء العذاب ويستعبدهم:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

فيذكّره فرعون بقتله للقبطى وهروبه سنين عديدة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الشعراء]، فيرد موسى بأنه فعل ذلك وهو من الجاهلين فهو لم يكن للقتل قصد لديه ولا نية.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الشعراء].

ويبدأ حوار ومناقشة شفهية بين فرعون وموسى، يوضح فيها موسى مضمون رسالته الإلهية الداعية إلى الوحدانية، يقابله المنطق الفرعونى الجاهل المخادع المكابر. ويهزأ فرعون لقول موسى بوجود إله غيره، ويسأل عن ماهية هذا الإله؟ فيرد موسى: هو رب العالمين ويسرد فى ذلك الحوار الذى سجله القرآن صفات الربوبية الحق:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الشعراء].

وعلى الرغم من محاولة فرعون الخروج من إطار الحوار المنطقى والمحاجاة العقلية إلى السباب اللفظى ملصقاً بموسى صفة الجنون قائلاً لقومه إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، فما كان من موسى، والذى فهم مقصد فرعون، إلا أن تجاهله واستمر فى عرض دعوته، وأخذ يعدد نعم الله على فرعون وقومه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة طه].

فمـا كان من فرعون أمام هـذه الردود المفحمة والمنطق الواضـح إلا أن يلجأ الى التهديد بالسجن قائلا له:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

حينئذ أدرك موسى أنه لا أمل من محاولة إقناع فرعون بالدليل العقلى، ولابد من تقديم شـيء مادى ملموس يُرى ويُلحظ فلا تكون له بعد ذلك حجة. فكانت الآيات الواضحات التى لا لبس فيها.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

فألقى موسـى عصاه فتحولت إلى ثعبان هائل بفم كبير وشكل مخيف يبعث على الرهبة والفزع. ثم وضع يده فى جيبه وأخرجها فإذا نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس أو القمر من غير سـوء مخالفة للونه، وقد كان موسى عليه السلام رجلا آدم شديد السمرة، وأخرجها فخرجت كما كانت على لونه.

ولقد وصف القرآن تحول عصا موسـى مـرة بالجان، وهو نوع من الحيات صغير أكحل العينين ضارب إلى الصفرة لا يؤذى[1]، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النمل].

ومرة بالثعبان، وهو الاسـم العام لكل حيوان من مرتبة الثعابين رتبة الحرشـفيات من الزواحف، ويتميز بجسـمه الطويل أو الكبير غير ذى أرجل المغطى بحراشـيف أو قشـور قرنية. وذلك عند الاسـتعانة بها كآية على نبوته وأنه جاء بما جاء به من ربه، وهذا فى قوله تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف] و ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ومرة بالحيَّة، وهو جنس يشمل الكبير والصغير، كما فى قوله تعالى:

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة طه].

---

(١) المعجم الوجيز.

والملفت أن تحولها إلى ثعبان لم يكن إلا عند منازلة السحرة يوم الزينة. وأمام هذا الثعبان الهائل المفزع، وهذا النور المتلألىء الذى يأخذ باللب بهت الجميع وخفتت الأصوات ما بين الدهشـــة والتعجب، وذهل فرعون ولكنه لم يتراجع عما فى رأسه من كفر وعناد. فبادر إلى التكذيب وروّج على قومه أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به. مدعياً أن موسى ساحر ماهر وأن ما جاء به موسى من البينات نوعاً من السحر الذى اشتهر به بعض الكهنة فى ذلك الزمان، قائلاً للملأ حوله إن هذا لساحر عليم جاء لكى يخرجكم من أرضكم بسـحره، فتوافقه حاشـيته وملؤه على أن موسى ساحر عليـم. بل زادوا على ذلك بأنه سـحر مفتعل مصنـوع وأنهم ما سمعوا به أو عرفوه من قبل كما لم يسـمعوا ما يدعوهم إليه موسـى من عبادة رب العالمين فى أسلافهم وآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة القصص].

وينبغى أن نذكر أن السحر لعب دوراً هاماً فى الحياة اليومية بمصر القديمة. وكان دفاعياً بصفة عامة وعدائياً فى حالات نادرة. واستعمل لمصلحة الدولة والمعابد ولفائدة المرضى ومن كانوا يخافون الإصابة بالمرض. وكان وقاية ضد الأشـباح وضد الحوادث، وكان يقى الموتى شـر الشـياطين فى العالم السـفلى، ويجنبهم الموت ثانية ويحفظهم من الجوع إذا أهمل أقاربهـم الأحياء تزويدهم بالتقدمات أو القرابين[1]، هذا فى اعتقادهم. وفى بعض الأحيان كان يضمن النصر فى المواقع الحربية، والحظ الحسـن. أى إنهم كانوا يسـتعينون به على قضاء حاجاتهم وتحقيق أمانيهم، ووصول الناس إلى ما يبغون من مال وسـلطان[2]. ويمكن القول بصفة عامة بأن السحر كان من أهم ضروريات الحياة فى مصر الفرعونية.

ولقد كان فى عقيدة المصريين أن لكل شىء روحاً تشبه روح الإنسان وتبعث فيه الحياة. وأن لكل شـىء من الموجودات الطبيعية حياة وإرادة وضميراً، ولذلك تسلطت الطبيعة على الإنسان ومن هنا كان سلطان الساحر على النفوس.

وكان من عقائدهم أن لكل إنسان قرينا من الجن يصحبه فى الحياة ثم يتبعه فى الآخرة، وعرف هذا القرين فى اللغة المصرية القديمة بالـ «كا» وأن لكل الأجسـام المادية والحيوانية

---

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، المرجع السابق

(٢) أنطون زكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، ١٩٩٢.

روحـا. وكان للسـحر عند المصريين القدماء علم له أصـول ترجع إلى أقدم العصور، وكانت هناك مدارس للسحر تسمى ببيوت العلم والحياة، وكان الفراعنة يضعون هذه المدارس تحت رعايتهم وعنايتهم بل كان الفرعون نفسـه يلقب برئيس السـحرة[1]. وكانوا يزودون تاجه بالسحر. وكان هو الربة «العظيمة السحر»[2].

أما السـحرة فكانوا ينقسـمون إلى طائفتين: طائفة شرعية تعترف لهم الحكومة بمباشرة السـحر ويثقون بهم ويلقبونهم بكتبة بيت الملك وكتبة الحياة، ويدعونهم لتفسير أحلامهم والانتصـار على أعدائهم. وكان السـاحر فى هـذه الطائفة لا يمارس هذا السـحر إلا بعد التمرن الطويل ومضى مدة طويلة فى حسن السيرة والسريرة، والتمسك بالطهارة والعفاف، والامتنـاع عن أكل اللحوم والأسماك، والانفراد فـى الخلوة كل أيام حياته، ولا يجوز أن يحترف حرفة أو مهنة أخرى حتى لا تشغله عن مهام وظيفته.

والطائفة الأخرى هم السـحرة غير الشـرعيين الذين يتعلمون السحر تقليداً، ولا تعترف لهم الحكومة بمباشـرة أعمالهم وتعاقبهم إذا باشـروا شـيئاً من ذلك بدون تصريح، وربما حكم عليهم بالإعدام. فمما ذكر فى بردية Lee بدار الكتب الأهلية بباريس أن ساحراً أراد أن ينتقم من قوم فصنع تماثيل من الشـمع وتلا عليها العزائم السـحرية، فأوقع بهم الأذى والضرر، ثم رُفع أمره إلى الملك فكان جزاؤه الإعدام[3].

وكان المصريـون فيما تشـهد به الأقاصيـص القديمة يحبون أحاديث السـحر وخوارق الأعمال ففيما ينسب إلى خوفو فى بردية «وستكار» من حبه السحر وإقباله عليه وما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السـحر، أن بنيه جلسـوا يتحدثون إليه ويسـمرون معه حيث أخذ كل واحد منهم يروى قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهنة وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر. إذ وقـف خفرع فحدثه عن كاهن يدعى «أوبا أونر» بلغه أن امرأته تعلقت بفتى فى المدينة كان يقبل فينفق معها سحابة النهار فى جوسق منعزل فى الحديقة عن بحيرة الدار، فإذا قضى منها وطره نزل إلى البحيرة يغتسل، فعمد الكاهن فصنع من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى

(١) أنطون ذكرى ، الأدب والدين عند قدماء المصريين، المرجع السابق.

(٢) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة. المرجع السابق.

(٣) أنطون ذكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، المرجع السابق

على الفتى حين نزل إليه ثم دعى مليكه ليشهد ذلك. فلما رأى الملك التمساح ارتاع وفزع لمرآه، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع[1].

وهكذا ظن فرعون موسى أن هذا الذى رأه من تحول عصا موسى إلى ثعبان هائل شبيه بما كان يعرف أو بما كان شائعاً من السحر. ووافقه ملؤه فى ذلك مشيرين عليه: أن يؤخر منازلة موسى وأخيه ومحاجاته ويبعث فى أقاليم ومدائن ملكه من يحشر له السحرة، وكل ماهر فى معرفة السحر وكثير العلم بصناعته من سائر البلاد ويجمعهم ليعارضوا موسى بنظير ما جاء به.

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يستأنف فرعون حديثه إلى موسى وقد مال إلى ما أشار به ملؤه وحاشيته، قائلاً له ليكن بيننا وبينك موعداً وليكن يوم الزينة.

﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة طه].

وكان للمصريين القدماء أعياد كثيرة منها عيدان مهمان هما: عيد الربيع الذى نطلق عليه (شم النسيم) وكان بين ٢٢ مارس (برمهات) و٣ ابريل (برمودة). وعيد وفاء النيل عندما يكتمل فيضان النيل فى منتصف الصيف تقريباً، فى أحد أيام شهرى يوليو (أبيب) وأغسطس (مسرى).

واختلف البعض فى يوم الزينة فالبعض يرى أنه يوم وفاء النيل والبعض الآخر يرى أنه يوم شم النسيم. وقيل هو يوم عاشوراء وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده[2]. وعاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم فى التقويم الهجرى عند المسلمين وهو يماثل يوم الغفران أو التكفير أو يوم كيبور عند اليهود حيث يعتقد إنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى وقومه من آل فرعون. والمهم فى الأمر أن اليوم كان يوم عيد للقوم يتزينون فيه وأن التجمع كان «ضحى» لتكون المنازلة أكثر جلاءً ووضوحاً ويكون الجو محتملاً للاجتماع قبيل الظهر.

وصدرت الأوامر لكبار السحرة بالتجمع يوم الزينة، حيث يتزين الناس ويخرجون إلى المتنزهات والأسواق، لمواجهة موسى وعصاه الثعبانية.

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وكانوا جمعاً غفيراً واختلفت الآراء فى عدد هؤلاء السحرة فقيل اثنا عشر ألفاً. وخمسة عشر ألفاً، وتسعة عشر ألفاً، واثنان وثلاثون ألفاً، وسبعين ألفاً وثمانون ألفا[1]. والله وحده أعلم بعدتهم، فلم يرد ذكر لعددهم فى القرآن الكريم كما لم تورد التوراة عدداً لهم.

وكان هناك اجتماع لا شك بين فرعون وكبار السحرة قبل المنازلة الشهيرة حيث اشترط السحرة لأنفسهم الأجر الكبير إذا انتصروا على موسى وكانت لهم الغلبة، فوافق فرعون على جزل العطاء لهم بل ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وجاء اليوم الموعود ووجهت دعوة مفتوحة إلى جميع الناس، فاجتمعت حشود كبيرة لمشاهدة هذا الموقف المهيب، وجلس فرعون وسط حاشيته وملئه فى أبهته المعهودة وهو معهم يمنون أنفسهم بانتصار السحرة.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أم من موسى، إنها الثقة بلا حدود فى نجاح السحرة، واليقين بالنصر على موسى وأخيه هارون. واصطف السحرة تجاه موسى وأخيه هارون، ومع كل ساحر منهم حبل وعصا.

بل إن السحرة أنفسهم – ولم يعاينوا حتى الآن برهان رب العالمين – كانوا يظنون بأن موسى ما هو إلا ساحر جاء لكى يفسد عليهم ما هم فيه من مكانة، وتصبح له المكانة العالية فى هذا الفن الذى يبرعون فيه ويحيون عليه. حتى إنهم لم يسمعوا لموسى عندما قال لهم لا تفتروا على الله كذبا ولا تتقولوه فيستأصلكم بهلاك ويبيدكم ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة طه].

والإسحات هو الاستئصال وإذهاب الأثر وسَحَتَ الشيء سَحْتَاً أى استأصله[2]. ومع ما لفتهم إليهم موسى عليه السلام إلا إنهم تجاهلوا هذا النداء ودعوا إلى الاستعداد للمواجهة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١.

(٢) المعجم الوجيز.

وقالوا بعد أن تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى.

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة طه].

واستعد الفريقان للمباراة وقطع السحرة الصمت متوجهين إلى موسى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ ... إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة طه].

قال موسى علية السلام ﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

قيل: الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد الانتظار لمجيئه فيكون أوقع فى النفوس[1].

وأسرع السحرة بإلقاء ما جهزوا من عصى وحبال، باسم إلههم فرعون.

﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء]. قيل سبعون ألف حبل وعصيهم سبعون ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصى[2].

﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة طه - الآية ٦٦].

ذلك أنهم لطخوا العصى بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت فخيِّل إلى الناس أن الأرض امتلأت حيات وأنها تسعى على بطنها[3]. ويذكر العهد القديم: «فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين» (الخروج ٧: ١١ - ١٢).

وبهت كل من بالساحة، حتى موسى نفسه، فى لحظة ما، خاف على الناس أن يفتنوا

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير النسفى.

(٣) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه وأخفى فى نفسه ذلك فالإيجاس الإخفاء والخفية.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة طه].

وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا[1].

فطمأنه الله تعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة طه]. إنك أنت الغالب على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، واطمأن موسى وذهب عنه الروع. وفى الساعة الراهنة أوحى الله تعالى إليه أن ألق ما فى يمينك، يعنى عصاك، فكانت المعجزة الكبرى. وتحولت العصاة إلى حية هائلة تبتلع كل ما ألقى السحرة من حبال وعصى حتى لم تبق منها شيئا، وأصل اللقف الأخذ بسرعة.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك جهاراً نهاراً فى ذلك الضحى، ووقع الحق وبطل السحر.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة طه].

وفوجىء المحتشدون من المصريين والحاضرون من بنى إسرائيل، حتى السحرة بهتوا. فلما عاينوا ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وصنعته، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مراء فيه. وأيقنوا أنهم أمام معجزة إلهية فلا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون. فعند ذلك شهدوا بصدق موسى وهارون فيما بلّغا عن رب العالمين. ووقعوا ساجدين لله، وقالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى وهارون».

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]. وهكذا وقع الحق وانقلب فرعون وقومه مغلوبين وأما السحرة الذين آمنوا فقد ثبتوا على إيمانهم.

إن فرعون أمام هذه الآية البينة الواضحة وقد استبد به الغضب من موقف السحرة، الذى

(١) تفسير فتح البارى، وتفسير الجلالين.

ترتب عليه خذلانه أمام عدوه موسى وسقوط ألوهيته المزعومة أمام الناس جميعا، لم يراجع نفسه ولم يسكت على هزيمته الفاضحة.

وكانت صدمة – لا شك – قويةلم يتحملها فرعون ولم يسكت عنها وهى خذلانه وهزيمته وإيمان سحرته برب العالمين. إذ كيف يؤمنون قبل أن يستأذنوه فى ذلك؟!،

فهؤلاء الذين ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزته إنهم لغالبون نجدهم أنفسهم بعد لحظات يقسمون برب موسى وهارون (والذى فطرنا)، إنه قسم بالذى خلقهم وهداهم وهو الله تبارك وتعالى، ناكرين ألوهيته الواهية التى يجدون فيها الإله يلجأ إلى العباد.

وأمام ذلك نجده يتهمهم بالتواطؤ مع موسى مدعياً أنه معلمهم،

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

وأنهم قاموا بخدعة كبيرة ليستولوا على مصر فيخرجوا منها أهلها ويتغلبوا عليها بسحرهم، ويذكر ابن كثير[1] فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام تحاور وأمير السحرة، فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق، قال الساحر لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لأومنَّ بك ولأشهدنَّ أنك حق وفرعون ينظر إليهما. فلهذا قال فرعون أن ما حدث ما هو إلا مكر تم بين موسى والسحرة وقوله «لتخرجوا منها أهلها» أى تجتمعون أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجون منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم وذلك فى محاولة منه التلبيس على شعبه وعلى جمهور الحاضرين والمشاهدين لهذه المناظرة، مشيراً إلى أنهم مازالوا تحت رحمته فكيف آمنوا بموسى قبل الإستئذان منه.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وكان طبيعياً أن يغلى دمه وتتملكه الثورة ويتوعد السحرة بأشد العذاب. واعتبرهم خارجين على النظام وأقسم على تعذيبهم حتى الموت بلون جديد من التعذيب لم يكن مألوفاً ومعتاداً عليه فى مصر قديماً، قائلاً: ولتعلمن أيها السحرة أينا أشد عذابا لكم وأدوم. أنا أو موسى.

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

وعلى الرغم من هذا التهديد شديد اللهجة من شخصية عاتية متجبرة فإن السحرة لم يتراجعوا، بل ثبتوا على موقفهم، وقالوا ما نقمتك علينا إلا لأننا رأينا الحق وأن ما جاء به موسى خارج عن طاقة البشر ولا علم لنا به، ولن نفضلك على ما رأينا من الحق. وقيل: إنهم لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة[1]، فلهذا قالوا اصنع ما أنت صانع واعمل بنا ما بدا لك إنما تقدر أن تعذبنا فى هذه الحياة الدنيا التى تفنى، قائلين:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

ولم يشر القرآن الكريم إلى ما آل إليه مصير السحرة من التصليب والموت مكتفياً بصدور هذه العزيمة من فرعون. وعلى الأرجح فإنه وقد انتهى النهار صلب السحرة فى جذوع النخل فى الميادين العامة وفى الأسواق ليراهم الناس، وقيل قطع فرعون أيديهم وأرجلهم وصلبهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف[2].

وهم فى ذلك الموقف الرهيب، وهم يساقون إلى حيث تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبون فتأكل الطيور من رءوسهم، يتجهون إلى الله بقلوب خاشعة مؤمنة بالدعاء أن يصبَّ الله عليهم صبراً من عنده فيثبتوا على إيمانهم ولا يُفتنوا ويعودوا إلى الكفر:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولهذا قال ابن عباس وآخرون: كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة[3].

---

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى.

فقد كانوا أهل شـر فى الصباح وصاروا قادة إيمان وقدوة فى الصبر والثبات ومثالاً لمن يرى الحـق فيتبعـه ولا يخاف فيه لومة لائم وذلك إلى يوم الدين. وقيل إنه فعل بهم ما أوعدهم من تقطيع وصلب وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: «أنتما ومن اتبعكما الغالبون»[1].

وبحادث إيمان السحرة وصلبهم (أو عدمه) يسدل الستار على معجزة العصا يوم الزينة. ولم يؤمـن فرعـون وملؤه على الرغم من هذه المعجزة الباهرة والآية العظيمة، واسـتمروا فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم.

وتوالت بعد ذلك الآيات فى وقت طويل استغرق سنين عديدة لتكتمل الآيات أو الحجج التسع التى ساقها الله على يد موسى. ولحقت الكوارث بمصر سنين عديدة فيما ذكر القرآن وروى العهد القديم (سفر الخروج الإصحاح ٨، ١٠، ٩) فأصيبت بالقحط والعلل والآفات.

فكانت الآية التالية، بعد يده التى خرجت بيضاء ناصعة وهو رجل شـديد السـمرة، والعصا التى تحولت إلى ثعبان هائل التقفت عصى السـحرة وحياتهم التى سـحروا أعين الناس بها، هى **سنو الجوع** بسبب الجدب والقحط، وانخفاض ماء النيل، وجفاف الأرض وموت الضرع وقلـة الزرع. ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

والسـنة أى: الجدب وقيل أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة «ونقص من الثمرات» أى نقص فى الزورع والثمار والغلات بالآفات والعاهات، فأما السـنين فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار والقرى[2].

ولقد كان النيل وما زال شريان الحياة لمصر فإذا ما انحبس النيل تجدب الأرض ويموت الزرع والضرع، و إذا زاد تغرق البلاد بطوفان عظيم. وهو فى الحالين نذير الكوارث ونقص من الثمرات. فإذا وقعت الواقعة انتشـرت بهـا الأدواء والأوبئة والأمراض فحصدت الناس حصداً قد يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور.

وإزاء هذا البلاء النازل، والذى يئس فرعون من كشـفه، واستشـعاراً منه وقومه أن سببه عدم الإيمان بما جاء به موسى، نجدهم يستغيثون بموسى أن يرفع عنهم ما هم فيه من بلاء ولسوف يؤمنـون بـه فيغيثهم الله. ويفيض ماء النيل ويعـود الخير كما كان. ومع ذلك لم يرتدع فرعون بل يعود إلى سابق عهده من العناد والكفر أشد ضراوة وحقدا. فكانت الآية التالية:

---

(١) تفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

حيث كثرت الأمطار المغرقة التى كونت السيول العظيمة فأغرقت المزروعات وجرفت التربة. وقيل: إنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى أعناقهم. وركد الماء فى أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعا وقيل: أربعين يوما[1].

وقيل عن **الطوفان** أيضا: إنه الطاعون أو إنه كثرة الموت[2]، وقيل الطوفان فى اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل: أى ما يطيف بهم فيهلكهم[3]. وأى من هذه الأشياء لم يطقه فرعون وقومه وأسرعوا يلوذون بموسى ليكشف عنهم هذا البلاء على وعد بأن يهتدوا. وحتى فى طلبهم يتعالون عليه ويصرون على أنه ساحر.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

فما أن غاض الماء وانكسرت حدة الطاعون أو الموت، وأنبت الله لهم ما لم يعهدوا من الكلأ والزرع والثمر، قالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبا، فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية[4].

وعاد فرعون وملؤه أكثر جبروتاً وعتواً. وعادوا إلى سابق عنادهم وكفرهم، بل وأصروا على ذلك:

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، إنها الجبِّلة الفرعونية الملعونة.

فتوالت الآيات كل منها أكبر من سابقتها، كل ذلك لعلهم يرجعون عن ذلك الغى والعناد.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

---

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير وتفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبى.

(٣) تفسير فتح القدير، وتفسير القرطبى.

(٤) تفسير القرطبى وتفسير فتح القدير.

فكانت **آية الجراد**. والجراد بفتح الجيم وتخفيف الراء معروف، والواحدة جرادة والذكر والأنثى سواء. ويقال أنه مشتق من جرد لأنه لا ينزل على شيء إلا جرده.

ولقد كانت مصر عرضة لكوارث الجراد الذى يأتى على كل شيء فلا يبقى ولا يذر، وكفى بالمصريين نقصاً فى الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ذلك الذى يقضى على الأخضر واليابس من أرضهم. وكان لكثرته الهائلة إذا أقبل مضرب المثل فى الجيوش الكثيرة الساحقة، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحباً تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفتها متون الأهرام[1].

وأرسل الله على فرعون وقومه أسراباً من الجراد حطَّت على الزروع والثمار فأتت عليها. فأكلت عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر، ولم يكن يشبعه شيء حتى جار على الأبواب والخشب والثياب والأمتعة فعجُّوا وضجُّوا.

وكما يصفها العهد القديم (الخروج ١٠ : ١٢ – ١٥):

«فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر. شيءٌ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه الأرض حتى أظلمت. وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر.. حتى لم يبق شيءٌ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر».

وهرع المزارعون إلى موسى، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربَّك لئن كشفت عنا هذا العذاب لنؤمنن لك. وأعطوه عهد الله وميثاقه واستعطفه فرعون أن يطلب من الله رد هذا الجراد، فدعا موسى ربه ورحلت أسراب الجراد بعدما قضت على ما على الأرض من خضرة.

وبدأ الناس فى الزراعة من جديد، وما أن اخضر الوادى وحملت الأشجار ثمارها حتى عاد فرعون إلى عناده وجبروته وعصيانه فبعث الله عليهم القُمَّل – والقُمَّل «مفردها قُمَّلة» كلمة عبرية أو سيريانية[2] – وهناك اختلاف فى تفسيرها فبعضهم يرى أنها صغار الدَّبَى «جمع دباة» وهو الجراد قبل أن يطير، أو هى سوس القمح أو الحنطة أو أنها البراغيث أو القمل تلك الحشرة التى تحمل الأمراض وتقرص الناس فى أجسامهم ورؤوسهم فتقض مضجعهم وتمنعهم من النوم[3]. وعلى كل حال هى حشرات صغيرة قد تنتشر وتكثر فى

(١) أحمد عبد الحميد يوسف(دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) محمد السيد الداودى، من كنوز القرآن بحوث لغوية منوعة، دار المعارف، ١٩٧٣.

(٣) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، تفسير القرطبى.

وقت واحد، غطت حياة المصريين ونغصتهم.

وفى العهد القديم (الخروج ٨: ٢٤):

«ففعل الرب هكذا. فدخلت ذُبّان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفى كل أرض مصر خربت الأرض من الذُبّان».

وأرجعوا ما أصابهم إلى وجود بنى إسرائيل بينهم، وتطيَّروا أو تشاءموا بموسى ومن آمن معه. فإذا جاءهم الخير نسبوه إلى أنفسهم وقالوا هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا، وإن تصبهم سيئة وشر يقولون بشؤمهم أصابنا هذا.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة الأعراف]. ورغم ذلك تتكرر الشفاعة ويتكرر الدعاء، ويستجيب الله ويرفع عنهم ما هم فيه من البلاء، ثم يعودوا إلى جبلَّتهم المعهودة، فتكون الآية الأشد منها.

**الضفادع** تلك الحيوانات الصغيرة ذات النقيق المزعج والتى كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم «حكت» أو «حكات». وكان المصريون يعتقدون أنها تخلق من طين النيل الذى تركه الفيضان ولذلك كانت رمزاً للبعث، وكانت لها قدسية فى بعض المقاطعات مثل مقاطعة ألفنتين (أسوان)[1].

وكانت تلك الضفادع آية جديدة من آيات الله التى ساقها إلى فرعون وقومه والتى كثرت عندهم، وغطت اليابس والماء، وعاثت فى بيوتهم حتى كانت تسقط فى آنية طعامهم وتدخل فى ملابسهم وفرشهم، وتثب إلى قدورهم وهى تغلى وأفواههم عند التكلم، حتى قيل: إن الرجل كان يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه حتى ضاق الناس وضجُّوا[2].

وفى العهد القديم (الخروج ٨: ١ - ٤).

«قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى. وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع، فتصعد وتدخل إلى بيتك والى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك والى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع».

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة.

(٢) تفسير ابن كثير ، وتفسير البيضاوى.

وفزعوا إلى موسى وتضرعوا، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، ودعا ربه فكشف عنهم ما هم فيه. فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها أكواماً كثيرة حتى أنتنت الأرض. حتى إذا رأى فرعون وحاشيته أن الفرج قد تم، عادوا إلى سابق كفرهم وعنادهم وخداعهم وعدم الوفاء بعهودهم. فقالوا: ما نحن لك بمؤمنين ولا مرسلين معك بنى إسرائيل ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

فأرسل الله عليهم **الدم** فصارت مياههم دما. فكانوا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما. وكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء والقبطى دما ( ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلى ماء وللقبطى دم ) حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقنى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الإناء دما، حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء فإذا مجته فى فيها صار دما وقد يكون فى هذا شىءٌ من المبالغة. وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أجاجا فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم[1]. وقيل عن الدم أنه الرُّعاف[2] وهو خروج الدم من الأنف.

ويصف العهد القديم هذه الآية فى سفر الخروج (٧: ١٩).

«ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً. فيكون دم فى كل أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار».

وضاق المصريون بهذا البلاء المبين فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد سحركم. فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما؟. فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير.

لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل[1]، وأصر فرعون وملؤه على الكفر والتمادى فى الشر.

وإن الإنسان ليعجب لتمسك فرعون بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر، وليس الأمر رغبة فى تسخيرهم فى المبانى والإنشاءات، فالمصريون بسواعدهم بنو الأهرامات العديدة وبنوا المعابد الضخمة ونحتوا مقابرهم فى الجبال حيث الصخور الصلبة وملأوا البادية والحضر بمبانيهم الدنيوية والدينية. وأغلب الظن أن إصرار فرعون على عدم خروج بنى إسرائيل من مصر بالرغم مما نزل به من ضربات لم يكن إلا عنادا غالبًا.

ويستمر هذا العناد والكفر من فرعون وقومه حتى مع دعوة ذلك المؤمن من آل فرعون لهم، وخوفه عليهم وإخلاصه لهم، ولما يئس منهم فوَّض أمره إلى الله. ومع ذلك لم يتركوه وشأنه فنجدهم يمكرون به وينجيه الله من مكرهم.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ويسهب العهد القديم فى سرد هذه الآيات ويضيف عليها آيات أخرى مثل **البعوض** الذى انتشر فى جميع أرض مصر» فصار على الناس وعلى البهائم حتى تراب جميع أرض مصر صار بعوضاً». (الخروج ٨: ١٦ - ١٧).

**والدمامل** حيث أخذ هارون وموسى رماد الأتون «ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم». (الخروج ٩: ١٠).

**والبرد والرعود** فيذكر العهد القديم: «فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نار على الأرض وأمطر الرب برداً على أرض مصر. فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد. شىء عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد» (الخروج ٩: ٢٣ - ٢٦). وربما يقصد بهذا البرد الطوفان الذى أشار إليه القرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير.

**والظلام الدامس** فكما يذكر العهد القديم:

«فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم». (الخروج ١٠: ٢٢ - ٢٣).

ولا ندرى مدى صحة حدوث مثل هذه الآيات الأخيرة وصحة وقائعها فلم يرد ذكرها إلا فى العهد القديم ولعل إشارتها إلى تمييز بنى إسرائيل والتأكيد عليه فى نهايتها يلقى مزيداً من الريبة فيها.

وبغض النظر عن هذه الآيات الأخيرة، فإنه بعد هذه المرحلة الطويلة من العناد والكفر بالآيات الواضحة، يتسرب اليأس إلى موسى ويشعر أنه لا رجاء فى إيمان هذا الطاغية العنيد، ولا أمل فى ملئه وحاشيته، ويرى اغترارهم بما وهبهم الله من نعم وثروات وأموال وزينة وحلى، وتماديهم فى الضلال وعدم الإيمان على الرغم مما عاينوه من أمر قارون. فدعا موسى ربه أن يطمس على أموالهم. فكانت الآية الأخيرة أن طمس الله على أموالهم فصارت حجارة، وشدَّد على قلوبهم فلم يؤمنوا حتى أتاهم الغرق، وذلك استجابة لدعوة موسى عليه السلام.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة يونس].

أى أعطيتهم أموالاً من الذهب والفضة وكريم الأحجار وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتنى به استدراجاً وفتنة لهم فيتبطروا ويتكبروا ويضلوا عن سبيلك ويضلوا غيرهم[1]. وقيل أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال عز وجل: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء] والمعنى: لأن لا تضلوا، وقيل: اللام للدعاء أى أبتلهم بالضلال عن سبيلك لأن بعده: «اطمس

(١) تفسير ابن كثير.

على أموالهم واشـدد على قلوبهم»[1]، أى امسـخ على أموالهم واشدد على قلوبهم بالضلالة فلا يصدقون بتوحيد الله ويقرون بوحدانيته حتى يروا العذاب الموجع.

ولقد أمَّن أخوه هارون على دعائه عليه السلام واستجاب الله لهما فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة يونس].

فمسـخت أموالهـم حجارة ولم يؤمن فرعـون حتى أدركه الغـرق، وقيل مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سـنة ثم هلكوا[2]. وكان أمر الله لموسـى وأخيه أن يستقيما ويمضيا فى الرسـالة والدعوة حتى ينفذ وعد الله وألا يسـلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعده سـبحانه فيستعجلا قضاءه فإن وعده لا يخلف وإن وعيده نازل بفرعون وعذابه واقع به وبقومه.

إذاً هو العناد الفرعونى والتكذيب المستمر بالآيات المفصلات والذى يورث الكفر والهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [سورة آل عمران].

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سـورة القمر].

## محاولة النكوص والتوبة بعد فوات الأوان

إن الله بعدما ساق له ولقومه من الآيات ما لا يُكَّذب ولا يُنكر، قد أمهله ومد له مدا. ولقد كانت أبواب التوبة أمامه مفتوحة على مصراعيها تناديه صباحاً ومسـاء إلا إنه أسرف فى الضلالة كما أسرف فى الطغيان والتكبر والعناد وفى كل شىء. ووصل إلى مرحلة اللاعودة، مرحلة ما لا يمكن أن يغفر. وزين له سوء عمله واتبع هواه الذى أوصله إلى الهاوية الكبرى عندما نسب الألوهية والربوبية إليه فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سـورة القصص].

---

(١) تفسير القرطبى وفتح القدير.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير ، وتفسير البيضاوى.

وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات].

فكان جزاؤه أن أخذه الله الأخذة الكبرى أخذة العزيز المقتدر القوى الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النازعات].

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحاقة].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة المزمل].

وأمام هذا العناد والكفر بالآيات، ومع العذاب والاضطهاد المستمر كان لابد لبنى إسرائيل من مخرج، فكان الخروج من مصر.

خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل أول الليل وكانوا أكثر من ستمائة ألف كما يذكر العهد القديم (الخروج ١٢:٢٧)

«فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُّوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد».

إذاً، فقد خرج بنو إسرائيل فارين من بطش الفرعون واضطهاده وحملوا معهم أشياءهم حتى عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم كانت مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. وكانوا قد استعاروا من المصريين حلى فضة وذهبًا وأمتعة وثيابًا لعيد يخرجون إليه فأعارهم المصريون ما طلبوا. وساقوا معهم أغنامهم وأبقارهم ومواشيهم. وأخرجوا معهم جسد يوسف عليه السلام لأنه كان عهد إليهم ذلك، ودلتهم عجوز على موضعه فقال لها موسى عليه السلام: احتكمى فقالت: أكون معك فى الجنة. فوصل الخبر فرعون فاستبد به الغضب وكان قد أمر بشاة فذبحت فأقسم ألا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إليه ستمائة ألف من القبط. فجمع جنوده وخرج بهم فى جيش كانت مقدمته فيما يُحكى سبعمائة ألف فارس وقيل: ألف ألف أو خمسمائة ألف وست مئة مركبة[1].

ومع تسليمنا بما فى مثل هذه الأعداد سواء الخاصة ببنى إسرائيل أم جنود فرعون من مبالغة، فإن فرعون قد أخذ جنوده ومركباته وتتبع بنى إسرائيل الفارين وقص أثرهم حتى تراءى الجمعان فعظم فزع بنى إسرائيل. ووصل بجنوده إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

واقترب فرعون وتراءى الجمعان فشاهدهم فرعون من بُعد ورآه بنو إسرائيل ورأوا جنوده ومركباته ففزعوا فزعاً شديداً وقالوا لموسى إنا لمدركون، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، فها هو ذا البحر بين أيدينا وفرعون من خلفنا، ولسوف يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الشعراء]، لقد عادوا إلى طبيعتهم من عدم اليقين بالله والثبات على الإيمان فقد اتهموا موسى من قبل بأنه مصدر الشقاء لهم وأن مجيئه إليهم لم يكن إلا مزيداً من الشقاء والإيذاء.

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

فها هم أولاء يقولون في خوف، لا يردهم إيمانهم عنه، إنهم سوف يُدركون وإنهم مقضٍ عليهم لا محالة.

**وفي العهد القديم:**

«وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبورٌ في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر» (خروج: ١٤ - ١١).

فقال لهم موسى بيقين المؤمن بربه الواثق من نصره: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تُدركوا إن معي ربي سيهدين إلى طريق أنجو فيه من فرعون وقومه ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وطمأنهم موسى بأنه لن يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد. وكان هارون عليه السلام في المقدمة ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة أو خلف الجموع. وقيل: إنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول نعم[1].

وفي سفر الخروج (١٣: ١٤ - ١٤):

«فقال موسى للشعب لا تخافوا، قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم.

---

(١) تفسير ابن كثير.

فإنــه كمــا رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضــا إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون».

وتذكر كتب التفســير عن عبد الله بن ســلام أن موســى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله إليه:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبى الله أين أمرك ربك عز وجل؟ قال: أمرنى أن أضرب البحر قال: فاضربه[1]. فضربه موسى بعصاه وقال: انفلق بإذن الله

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سـورة الشـعراء] أى كالجبل الكبير. وقال ابن عباس (تفسـير ابن كثير) صار البحر اثنى عشر طريقا لكل سبط من أسباط بنى سرائيل طريق، وزاد البعض فقالوا صار فيه طاقــات ينظر بعضهم إلى بعض ليرى كل قــوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. والفرق القطعــة من البحر وقرئ فلق بلام بدل الراء[2]، وقــام الماء كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبســا كوجه الأرض واليابس هو ما كان رطباً وجافا، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سـورة طه]. أى لا تخاف أن يدركك فرعون ولا تخشــى أن يغرق قومك فى البحر.

وفى العهد القديم: "فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم" (الخروج ١٤ : ٢٢).

«وأما بنو إســرائيل فمشوا على اليابســة فى وسط البحر والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (الخروج ١٤: ٢٩).

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير فتح القدير.

حتى إذا أشـرف فرعون على شـاطئ البحر وجدهم يقودهم موسى فى طريق يابس وسط المـاء، وعلـى جانبيه تقف الأمواج العاتية كالجبال الراسـية. دنا فرعون وأصحابه بعد ما قطع موسـى ببنى إسرائيل البحر، فلما رأى فرعون وجنوده البحر منفلقا استعظموا الأمر، وفى سفر الخروج (١٤: ٢٥):

«فقال المصريون نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصرين عنهم». وقال فرعون لهم: إنمـا انفلق من هيبتى وقد تفتح لى حتـى أدرك أعدائى فأقتلهم، وقال: أقدموا فليس القوم أحق بالبحر منكم ! فذلك قول الله ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سـورة الشـعراء] أى قرَّبنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه، وقيل (أزلقنا) جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمـع، وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبـى كعب وابن عباس: وأزلقنا بالقاف على معنى أهلكناهم من قوله أزلقت الناقة وأزلقت الفرس فهى مزلق إذا أزلقت ولدها[1].

فلمـا قـام فرعون على الطـرق أبت خيله أن تقتحم، فكان أمـر الله لها أن تنزل البحر خلف موسى وقومه.

«فدفع الرب المصريين فى وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر لم يبق منهم ولا واحد» (الخروج ١٤: ٢٧ – ٢٨).

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة طه].

وأتبع هنا مطاوع تبع، يقال أتبعتهم إذا تبعتهم وذلك إذا سـبقوك فلحقتهم، فالمعنى: تبعهـم فرعون ومعه جنوده وقيل الباء زائـدة والأصل أتبعهم جنوده: أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه وقرئ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ بالتشديد: أى لحقهم بجنوده وهو معهم. كما يقال: ركب الأمير بسيفه أى معه سيفه[2].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة يونس] بغياً وعـدوا أى فـى حال ظلم واعتداء، والعدو بفتح العين وسـكون الدال تجاوز الحد، وقوله تعـالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فى سـورة الكهف أى لا تتجـاوز إلى غيرهم. وقرأها البعـض ﴿وَلَا تَعْدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ بضم العين والدال وتشـديد الواو مثـل علا يعلوا علوًا.

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

وقال المفسرون بغيا طلبا للاستعلاء بغير حق فى القول وعدوا فى الفعل فهما نصب على المفعول له.

«وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر» (الخروج ١٤ : ٢٣).

«فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر، ورد الرب عليهم ماء البحر، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر» (الخروج ١٥ : ١٩).

أقبل فرعون فلما أشرف على الماء دخل البحر خلف بنى إسرائيل وتبعه الجيش بجميع عرباته، قال أصحاب موسى: يا مكلم الله إن القوم يتبعوننا فى الطريق فاضرب بعصاك البحر فاخلطه، فأراد موسى أن يفعل فأوحى الله إليه: أن اترك البحر رهواً أى اتركه ساكنا على حاله التى كان عليها حين دخلته، أو اتركه طريقاً يبساً سهلا أو منفرجا فذلك معنى «رهوا»[1].

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الدخان].

دخل فرعون وجنوده البحر خلف بنى إسرائيل وما كاد يلحق بهم ممنياً نفسه بإعادتهم إلى مصر ثانية ليكونوا فى خدمته وتسخيره، وحتى إذا استكملوا دخولا وخرج آخر أصحاب موسى أوحى الله إلى البحر: خذ عبدى الظالم وعبادى الظلمة، سلطانى فيك فإنى قد سلطتك عليهم، بدأت قوائم الخيل وعجلات المركبات تغوص فى الوحل وأقبلت الأمواج العاتية هادرة وانطبق البحر عليهم وغشيتهم المياه. وما هى إلا ثوان قليلة حتى ابتلعهم البحر فى جوفه.

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة طه]. أى علاهم وأصابهم والتكرار فى غشيهم للتعظيم والتهويل، وقيل غشيهم البعض الذى غشيهم لأنه لم يغشهم كل ماء البحر بل الذى غشيهم بعضه، فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم: أى غطاهم ما غطاهم[2].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة القصص]. ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الذاريات]. والنبذ هو الطرح أو الإلقاء أما اليم فهو البحر. واليم كلمة أصلها قبطى أى مصرى وتعنى بالمصرية القديمة ym «يم»

---

(١) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

بمعنى البحر أو النهر، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر. والمليم كما ترى معظم كتب التفاسير: هو الذى قد أتى ما يلام عليه من الفعل أو هو ملوم جاحد فاجر معاند. وان أرجع د. رمضان عبده[1] هذا اللفظ إلى أصله فى اللغة المصرية القديمة تحت معنى mr مر أو مل أى يشكو أو يتألم وظهرت قبل الأسرة الثامنة عشرة فى البرديات الطبية، وأصبحت فى العربية ململ أى يتقلب من الألم.

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة يونس] .

وهكذا انطبق البحر عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت المياه فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال، وقد أدركه الغرق وأيقن بالهلكة وأشرف على الموت، آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فآمن حيث لا ينفعه الإيمان. هى إذاً عادة كل مستقو بجبروته وملكه وسطوته يتذكر الله عندما تنسحب الدنيا من تحته وتتلاشى سلطته ويضيع ملكه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وفرعون وهو يدركه الغرق وليس ثمَّ من مفر له فتقل أنفاسه ويخاصره الموت ولا يملك للنجاة طريق وتبلغ الروح الحلقوم، عندها وعندها فقط، يدرك أنه كان على ضلالة وأن الذى جاء به موسى هو الحق، وأنه لم يكن إلها كما يدعى أو كما روّج له المروجون من السدنة والمتملقين المنتفعين، بل الإله الحق هو إله موسى وبنى إسرائيل وهو رب العالمين فيجهر بذلك:

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[سورة يونس].

تُرى هل تنفع تلك التوبة؛ وهذا الجهر بالتسليم والإذعان بعد هذا التاريخ الطويل والممتد من الإسراف والظلم والطغيان والتكبر والاستعلاء والفساد والإفساد والضلال والتضليل

---

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمسئول فى مصر، فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

والعناد والكفر وادعاء الألوهية والربوبية.

إن الوقت قد فات ولا يجدى الآن ما يظهر من تسليم وإيمان ولهذا قال الله له:

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس] أى من المفسدين فى الأرض. إن هذا الاعتراف والإذعان بالإيمان بما آمن به موسى لم يكن سوى وليد القهر والغلبة واليأس من النجاة والإشراف على الهلاك.

وهكذا ألمَّ الغرق بفرعون وجنوده فى لحظة فارقة فى التاريخ، ونجَّى الله موسى ومن معه أجمعين، وكانت آية عظيمة أبصرها بنو إسرائيل جميعاً بأم أعينهم. ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

غير أن البعض من بنى إسرائيل وهم أمام هذه الآية الكبرى جحدوا غرقه، وقالوا: ما غرق فرعون، هو أعظم شأنا من أن يغرق. وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا، فأخرجه الله سبحانه من الماء ونبذه على ساحل البحر حتى نظروا إليه ورأوا جثته طافية ميتة، فذلك قوله:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

وننجيك أى نلقيك على نجوة من الأرض أى مرتفع. والمقصود نخرج جثتك ونبقيها عبرة ولتكون آية وعلامة لمن خلفك ولمن وراءك من المصريين والفراعنة، ومن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر، من بنى إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل[1]

أو تكون آية لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً من الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وهكذا كانت نهاية الفرعونية الملعونة فى الدنيا والآخرة، وهى النهاية المنطقية والمحتومة لكل هذه البشاعة

(١) انظر تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير والجلالين.

والقبح من خليط الصفات المذمومة.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة القصص]. وهكذا أخذ ربك إذا اخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه اليم شديد، وما كان ربك بظلام للعبيد.

فهل على أمثال هؤلاء من الظالمين المكذبين بالآيات الغافلين عنها يمكن أن تبكى السماء لعظم مصيبتهم كما كانت العرب تقول مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء[1]، لا يمكن.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الدخان].

إن قوم فرعون لم يكن يصعد إلى السماء منهم خير ولم يكن لهم فى الأرض آثار صالحة ولم يعملوا عليه عملاً صالحاً بل كانوا من المفسدين الفاسقين ولهذا لم تبك عليهم السماء والأرض، وما كان الله ليؤخرهم إلى وقت آخر فيتوبوا.

وهكذا كان عقابهم، ولحقته وقومه اللعنة فى الدنيا فهم ملعونون على ألسنة الأنبياء والخلق، ويوم القيامة هم من (المقبوحين) أى من القوم الذين قبحهم الله وشوَّه خلقتهم أو المهلكين المقوتين[2].

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة القصص].

فترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة.

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة هود].

وتقول كتب التفسير: إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم فى أجواف طير سود فهى تعرض على النار كل يوم مرتين (غدوا وعشيا) إلى أن تقوم الساعة.

وجميع المفسرين يرون أن هذا العرض يكون فى البرزخ بالإضافة إلى أشد العذاب الذى سيدخله آل فرعون يوم القيامة فيكون العرض على النار غدواً وعشياً نوعاً من عذاب القبر. وفى حديث صخرة بن جويرة عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

الكافر إذا مات عرضت روحه على النار بالغداة والعشـــى وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشـــى[1]، ثم تـــلا: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ومـــاذا يمكن أن يتوقع من جزاء مع هذا الســـجل الحافل بالاســـتكبار والتكبر والإجرام والتعالى وعدم الإيمان بالآيات الواضحة، وهذا الإجرام السافر، والظلم البيِّن.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إن هذا الظلم وهذا الإجرام لابد أن ينتهى إلى الهلاك:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

وقد جعلهم الله سـلفا لمثل مـن عمل بعملهم و عبرة للمعتبريـن وعظة للمتعظين يتعظ بهم من بعدهم من الأمم فينتهوا عن الكفر والظلم والتكبر والاسـتعلاء والاجرام وغيرها من الذنوب والآثام.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة النازعات].

﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

ويعل من الملفت للنظر خلو الوثائق المصرية من متون ونقوش وبرديات من أية إشـارة أو خبر أو رسـم يشـير إلى تلك الأحداث الجسـام فى التاريخ المصرى القديم، على الرغم مما هـو معروف عن المصريين من حرصهم على دقة تسـجيل وتدوين تاريخهم ونقش لأحداثه على جدران معابدهم ومقابرهم، مقارنة بما وجد فى العهد القديم من تفصيل مسـهب لهذا الحدث الحيوى لبنى إسـرائيل، أو ما ذكره القرآن فى سـياق قصة موسى مع فرعون. وقد يرجع السـبب، فى ذلك إلى أن وجود بنى إسـرائيل فى الحيـاة المصرية كان من الهوان بحيث لا يستحقون أية إشارة تدل على قيمة مادية أو معنوية لهم. ويعلل (جون سميث)[2] سـكوت الآثار المصرية عن قصة الخروج – أى خروج بنى إسـرائيل من مصر – بأنها من

(١) تفسير القرطبى.

(٢) ( J W. Smith. God & Man in Early Israel, London, 1956, P38.

وجهـــة النظر المصرية الفرعونية حدثاً ثانوياً لا يزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من ســادتهم المصريين، وما كانت هذه بالحادثة التى تســجل على جدران المعابد أو التى تقام لها الآثار لتسجيلها. إذ كان كل ما يهم المؤرخ المصرى فى عصوره الفرعونية المختلفة كلها هو تدوين انتصــارات الفرعون ومفاخره، وما قام به للآلهة الذين كانوا يؤازرونه وينصرونه فى المواقع كلها. فليس من المتصور إذاً أن تسجل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين، كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل فرعون فى منع خروج بنى إسرائيل، فضلاً عن غرقه أثناء مطاردتهم. إذ إنها أحداث يجب فرض تعتيم إعلامى كامل عليها وعلى كل ما يتعلق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمة وهو أمر غير مستغرب.

وقد يرجع هذا الســكوت لاحتمال آخر هو أن الجيش الفرعونى الذى أصابه الغرق قد ضم كل العناصر الهندسية والكهنوتية التى كانت عماد الحضارة المصرية فى ذلك الوقت، فلمــا بادت هذه الطبقة كلها، خلت البلاد من ذوى الشــأن فيهــا، وأقفرت وتحولت إلى بؤرة صراع على السلطة لم تكد تستقر بعد العديد من السنين حتى كانت هذه الأحداث قد نسيت تماماً ويرشحها للنسيان والإهمال الكامل أنها تتعلق بعبيد الأمس الذين سيصبحون أعداء لمصر.

وقــد حاول بعض علماء الآثار البحث عن اســم «موســى» عليه الســلام فى النصوص المصرية القديمة وافترض بعضهم العثور على هذا الاسم فى بردية تسمى بردية «أنستاسى الأولى»، غــير أن هــذا لا يمكن الاعتمــاد عليه نظراً لوجود العديد من الأشــخاص الذين يحملون اسم «مس».

وقامت بعثة جمعية الاكتشافات الأثرية المصرية الإنجليزية بعمل حفائر فى شرق الدلتا، وكانت تأمل فى العثور على بقايا أثرية لجماعات الخروج غير أنها لم تعثر على أية أدلة مادية على ذلك.

كمــا أن النتائــج العلمية من الحفائــر التى تمت فى منطقة «جريكو» فى فلســطين عام ١٩٠٧ – ١٩٠٩ لم تعطِ أى دليل أثرى على موضوع الخروج. وكذلك البعثة الفرنسية فى عام ١٩٣٩ التى قامت بعمل حفائر فى تانيس شــرق الدلتا وعثرت على مقابر الأســرة الحادية والعشرين لم تعثر على أى أثر يرجع إلى أحداث الخروج. وبالمثل نتائج الحفائر التى قامت بها بعض البعثات الأثرية اليهودية بالاشتراك مع بعثات أجنبية أخرى فى مناطق مختلفة من شبه جزيرة سيناء خلال احتلال اليهود لها بعد عام ١٩٦٧.

والأثـر الوحيـد الـذى ذكر فيه لفظ «اسـرئيل» تلـك اللوحة التى عثـر عليها الأثرى البريطانـى «فلندرز بترى» فى خرائـب معبد مرنبتاح بطيبة (الأقصر) عام ١٨٩٦، وتعرف بأنشـودة النصر أو بلوح إسـرائيل، إذ ورد اسم إسـرائيل عليه لأول مرة فى التاريخ. وهى لوحة من الجرانيت محفوظة فى المتحف المصرى تحت رقم ٣٤٠٢٥ (صورة ٥).

وتاريـخ هـذه اللوحة يعـود إلى عهد الملك أمنحتـب الثالث أحد ملوك الأسـرة الثامنة عشـرة الذى نصبها فى معبده الجنائزى فى البر الغربى فى طيبة، وسـجل على وجهها الأمامـى نصاً عـن إنجازاته المعمارية التى قام بها فى فترة حكمه (١٣٩٥ – ١٣٦٣ ق.م). وبعد ما يقرب من مائة وخمسـين عاما تقريبا قام الملك مرنبتاح (صورة رقم ٦)، أحد ملوك الأسـرة التاسعة عشرة وابن الملك رمسـيس الثانى، بنقلها إلى معبده الجنائزى الذى شيده إلى الشـمال من معبد أمنحتب الثالث فى البر الغربى من طيبة. وقام بتسـجيل نص آخر علـى وجهها الآخر. ومما سـاعد على عملية نقل هـذه اللوحة إلى معبده هو قربه من معبد أمنحتب الثالث.

ويبـدو أيضـا أن إمكانيات النحت قد قلت كثيرا فى عهـده. ونلاحظ أيضا أن مرنبتاح لم يحـاول أن يمحو ويطمس النص الخاص بأمنحتب الثالث مما يدل على أن هذه اللوحة كانـت قائمة فـى مكان ظاهر فى معبده الجنائزى ولم تكـن ملصقة إلى جدار أو حائط فى المعبد وإلا لأثّر ذلك على سلامة نص أمنحتب الثالث الذى عثر عليه فى حالة جيدة. ولعل وضعهـا فى مكان ظاهـر كان مقصوداً حتى يتمكن من يدخل معبـده الجنزى من أن يقرأ النصـين معـا وربما يقارن أيضا بين ما حققه أمنحتـب الثالث من إنجازات معمارية وبين ما حققه مرنبتاح من فتوحات عسكرية.

ولعل تسـمية هذه اللوحـة بـ «لوحة إسـرائيل» قد جانبه الصواب، والأولى تسـميتها بـ«اللوحـة ذات النصـين» أو «لوحة انتصارات أمنحتب الثالـث ومرنبتاح» أو «نص البر الغربى لأمنحتب الثالث ومرنبتاح».

ويمثل النص، الذى ذكر فيه لفظ إسـرائيل، قصيدة يسـجل الكاتب فيها النصر الكبير الذى أحرزه مرنبتاح على شـعوب وقبائل البحر المتوسط واللوبيين وما جاء فيها من وصف لمدى هذا الانتصار. وقد وصف فيها الشاعر هزيمة الأعداء المنكرة والأعمال الجسام التى قام بها مرنبتاح للذود عن حياض بلاده وتخليصها من غارات الليبيين وكسـر شـوكتهم، وما صارت إليه حالة أمير «لوبيا» وأسرته من بؤس وشقاء.

والقصيدة تزخر بالاستعارات والتشبيهات المختارة مما أسبغ عليها صورة أدبية أكثر من أن تكون وثيقة تاريخية خالصة. ولم يفت الكاتب أن يصف الفرعون بالعدل والاستقامة فيقول:

فهو يعطى كل ذى حق حقه، فالثروة تتدفق على الرجل الصالح، أما المجرم فلن يتمتع بغنيمة ما.

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف السلام والطمأنينة والرخاء التى سادت البلاد بعد هذا الانتصار فيقول:

فحتى الحيوان قد ترك جائلاً بدون راع

فى حين أن أصحابها يروحون ويغدون مغنيين

وليس هناك صياح قوم متوجعين

وفى ختام القصيدة أو الأنشودة يُعدِّد الشاعر القبائل والأقاليم التى أخضعها مرنبتاح، وهو الجزء الذى يحظى بالأهمية التاريخية الكبيرة وهذا نصها:

ويقول الرؤساء المطروحين أرضاً: السلام!

ولم يعد يَرفع واحد من بين «قبائل البدو تسعة الأقواس» رأسه. (اسم قديم لجيران مصر المعادين لها).

والتمحو (إحدى القبائل التى كانت تسكن ليبيا ) قد خربت.

وبلاد «خاتى» قد أصبحت مسالمة.

وكنعان أسرت مع كل خبيث. وأزيلت «عسقلان».

و «جيزر» قبض عليها. و «بنوم» أصبحت لا شىء.

وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

و «خارو» (سوريا) أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت السلم.

وكل من ذهب جائلاً أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ابن رع محبوب آمون ابن الشمس مرنبتاح منشرح بالصدق، معطى الحياة مثل رع كل يوم.

وتمثل هذه اللوحة المثل الوحيد الذى ذكر فيه لفظ إسرائيل وعثر عليه فى الآثار المصرية، والجملة التى ذكر فيها هى:

«وإسرائيل خربت وليس لها بذر».

وعلى الرغم من تكرار مثل هذا التعبير فى اللغة المصرية القديمة فى مواضع أخرى، فإن استعمالها هنا بالنسبة لبنى إسرائيل كان ذا أهمية كبيرة فى بحث موضوع خروجهم من مصر سواء كان فى هذا العهد أم قبله. أما فيما يتعلق بمعنى العبارة نفسها فقد ترجمها علماء اللغة والآثار بأوجه مختلفة منها:

- ❑ وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت (بريستد J.H. Breasted).
- ❑ وقوم إسرائيل قد صاروا قفرا، ومحاصيلهم قد ذهبت. (جرفث F. L. Grifith).
- ❑ وقوم إسرائيل قد اتلفوا، وليس لديهم غلة. (بترى F.Petrie)
- ❑ واسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها. (نافيل H.E. Naville)

ويذكر سليم حسن[1] أن علماء الآثار واللغة قد ترجموا الجملة التى وردت عن إسرائيل (وليس لها بذر) على وجهين بعضهم قال: إن محاصيلهم قد ذهبت أو ليس لهم غلة. والأصح الوجه الآخر كما قال عالم المصريات الأمريكى جيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ – ١٩٣٥): وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت. أو كما قال نافيل عالم المصريات السويسرى (١٨٤٤ – ١٩٢٦)[2]: وإسرائيل قد مُحى وبذرته لا وجود لها. ويشير إلى أن كلمة (بذرة) تدل على (الخَلَف) وهذا يتطابق مع ما نجده فى اللغات الأخرى بمعنى أن البذرة والنسل واحد. وأنه فى الدول العربية للآن نجد أن كلمة (بذرة) تستعمل بمعنى (النسل) أو (الأولاد)، ويقال لمن لا نسل له (لقد انقطعت بذرته).

ويضيف «سليم حسن» أن فى الأصل المصرى للنقش تفصيلاً فى كتابة إسرائيل له أهميته. فلقد درج المصريون فيما يخطون لغتهم القديمة هيروغليفية أو هيراطيقية أنهم كانوا يلحقون بهجاء اللفظ صورة، أو علامة تدل على المعنى وتخصصه وتعرف باسم المخصص. وكانوا فى ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة – ورمزا آخر للأجنبى – أى لغير المصرى. وفى تلك القصيدة ورد ذكر تحنو، وخاتى، وورد ذكر كنعان، وعسقلان، وجيزر، وبانوعام، ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء. أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من رسم الأرض، حيث لا

---

(١) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، ص ١١١.

(2) Henri Edouard Naville, Archeology of the Old Testament.1915 - The Store-City of Pithom and the Route of the Exodus, London, 1885

أرض محددة لهم يومئذ لا فى فلسطين ولا فى غير فلسطين، وكان الرسم الذى ألحق باسم إسـرائيل هو صورة رجل وامرأة دلالة علـى أنهم مجرد جمع من الناس لا غير. وهذا يدل على أن الشاعر أو الكاتب الذى تغنى بانتصار (مرنبتاح) وصاغ هذا النشيد كان يعنى ذلك جيداً، ولا سبيل إلى التشكيك فى طريقة كتابة القصيدة بما يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه، فقد كان واعياً لما يكتب وأورد أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص ١٩ (تسـعة عشـر) مرة لم يغفل رسم رمز الأرض الأجنبية فى واحدة منها سواء ما سبق اسم إسرائيل أم ما ورد بعده. ويخلص من ذلك إلى أن أنشودة النصر هذه تشير إلى طائفة من (بنى إسرائيل) كانت فى بعض بقاع فلسطين أو تخومها حين خرج مرنبتاح لقمع ثورة هناك. وهذا يعنى أنهم قد خرجوا من مصر قبل عهده.

ويذهـب البعـض وراء هذا الرأى، ومن هـؤلاء عبد العزيز صالح[1] الـذى يرى أن لوحة مرنبتاح لم تذكر تتبعه لهم من مصر وذلك يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده، وبالتالى فهم خرجوا من مصر قبل عهده أى فى أواخر عصر رمسيس الثانى. ويوافق هذا الرأى «نافيل» الـذى يرى أن اللوحة تدل على أن بنى إسـرائيل قد خرجوا من مصر قبل مرنبتاح أو فى أوائل حكمه. غير أن هذا الافتراض الأخير وهو خروج بنى إسـرائيل أوائل حكم مرنبتاح يتنافـى مع الحقيقة المؤكـدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسـرائيل، فلا يمكـن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكـم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم.

وبالتـالى فإن هذه اللوحة قد كتبت بعد غرق فرعون (والمرجح هنا أنه رمسـيس الثانى) وكتـب نصها خَلَفه (مرنبتـاح) تخليداً لذكرى انتصاره على الليبيين، وأضاف إليهم «بذرة إسـرائيل قد أبيدت» كنوع من الافتخار الكاذب. فلا يعقل أن يكون الفرعون قد غرق أثناء مطاردة بنى إسرائيل ثم يدعى أنه أبادهم.

نقطة ثانية يقولها «نافيل H.E. Naville»، والذى قام بحفائر فى منطقة تل المسـخوطة وفـى وادى الطميلات وقدم تقريره عن هذه الحفائر تحت عنوان «قصة مدينة بتوم (فيثوم) وطريق الخروج» عام ١٨٨٥، أنه لا يعتقد أن الإشارة إلى سوريا فى اللوحة تشير إلى حرب حقيقة وقعت فى سـوريا. فالحقيقة أنه لا يوجد ما يدل على أن مرنبتاح قد قاد أو سـيّر حملة إلى سوريا أو فلسطين. كما أن ما ذُكر من أن كل أراضى بلاد «خاتى» أصبحت مسالمة

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، جـ ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠ ص ٢٥٥ .

هو كما يقال من قبيل تحصيل الحاصل لأنها كانت مسألة منذ المعاهدة التى وقعها والده رمسيس الثانى مع ملكها. إذ لو كان الأمر كذلك وحارب سوريا ودخل فلسطين لوجدنا إشادة بأعماله العظيمة التى قام بها هناك غير هذه الكلمات القليلة التى جاءت فى نهاية متن هذه اللوحة.

إذاً فالأسطر الأخيرة من هذه اللوحة تدل على أن سلامة البلاد كانت تامة، ففى الجانب الغربى من البلاد ومع اللوبيين كان نصره حاسماً، ومن الجانب الشرقى من جانب «خيتا» كانت فى سلام معه منذ حكم والده، أما الممالك الأخرى التى يصح أن تصبح أعداء له فقد صارت بلا حول ولا قوة.

فلا محل إذا للقول بأن بنى إسرائيل كانوا قد استقروا فى فلسطين لبعض الوقت ثم ذهب مرنبتاح وأباد بذرتهم وأعاد النفوذ المصرى إلى فلسطين ثانية. ويَجُبّ هذا كله أن سنوات التيه ثابتة لورودها فى القرآن الكريم وفى العهد القديم أيضاً فلا محل لإسقاطها أو إنكارها. فإن ذكره لإبادة بنى إسرائيل فى هذه اللوحة لا يعدو أن يكون كما يشير بيومى مهران[1] إلى أنه أحد الاحتمالات التالية:

- أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعضاً من العابيرو، وهم أقرباء لبنى إسرائيل وفرع منهم، فأبادهم، وظن أو ادعى أنه أباد بنى إسرائيل.
- أو أنه ذهب إلى فلسطين ولم يجد بنى إسرائيل وبحث عنهم فى أنحاء فلسطين فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا فى الصحراء ونسب هلاكهم إلى نفسه.
- بالإضافة إلى كونه مجرد تفاخر اعتاده الفراعنة منذ أول عهود تاريخهم وأصبح أمراً موروثاً، أو أن مرنبتاح لم يقد أو يرسل حملة إلى فلسطين إطلاقاً. وأنه كما نسب السلام مع «خاتى» لنفسه، فقد أراد أن يؤكد أنه لم يقل عن سلفه فى اهتمامه بأملاك مصر فى آسيا. فكان أن ضمّن نصره على الليبيين نصراً فى الشرق أيضاً، فأضاف خاتى وجيزر وعسقلان وبالمثل كانت إضافته لاسم إسرائيل وكان ذلك أسهل إذ إنهم لم يكونوا دولة بل قوماً بدون أرض كما هو واضح من طريقة ذكرهم فى هذه اللوحة.

غير أنه يمكن القول أن تاريخ بنى إسرائيل فى مصر لم يذكر فى النصوص المصرية القديمة فيما يعرف حتى الآن غير هذه الإشارة التى جاءت فى هذه اللوحة، هذا إن كانت تدل عليهم. ويرجع هذا إلى أنهم لم يكن لهم مكانة اجتماعية أو سياسية تذكر، فقد كانوا

(١) محمد بيومى مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٣، ١٩٨٤، ص ٥٠٠.

فى عهد يوسف عليه السلام كما جاء فى العهد القديم من رعاة البدو، وكان كل راع يعد فى نظر المصرى لعنة.

وفى زمن موسى عليه السلام كان الإسرائيليون فوق ذلك كله عبيداً. ومن ذلك نفهم أنهم لم يكونوا بأية حال من هؤلاء القوم الذين يعنون بتدوين أعمالهم فى السجلات الرسمية، غير أنه وجدت حادثة واحدة تتصل بإقامتهم فى مصر كان لها من الوجهة المصرية أهمية سياسية واقتصادية، وذلك أن قيامهم بعمل مشترك وهو قصة خروجهم جملة من مصر كان يهم الحكومة وقتئذ لما كانوا يقومون به من أعمال السخرة للفرعون فى إقامة مبانية. وعلى ذلك فإن الإشارة إليه فى السجلات الحكومية الخاصة بهذا العصر ممكن، وبخاصة إذا كان هؤلاء القوم يقومون بأعمال جسيمة ومفيدة للبلاد عامة وللفرعون خاصة. من هنا فإن ذكر بنى إسرائيل فى النقوش المصرية المعاصرة لإقامتهم فى مصر لابد أن يشير إلى حادثة خروجهم. وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون الإشارة فى أنشودة النصر هذه تشير إلى حادثة الخروج على أن ذلك يتوقف على أمرين كما يذكر سليم حسن[1]:

أحدهما يتعلق بمعنى الجملة التى جاءت فى الأنشودة خاصة بإسرائيل وهو ما تناولناه من قبل.

والثانى: هو العلاقة بين تاريخ الخروج وتاريخ نقش هذه اللوحة.

أما تاريخ اللوحة فمسجل فى متن النقش نفسه إن هذه القصيدة قد أرخت بتاريخ يوم الانتصار الذى أحرزه مرنبتاح على اللوبيين وهو اليوم الثالث من الشهر الحادى عشر من السنة الخامسة من حكم مرنبتاح. ولكنها ألفت بطبيعة الحال فيما بعد ويظهر أن هذه الحوادث التى ذكرت فى هذه القصيدة قد حدثت فى زمن قبل زمن تاريخ اللوحة، وإذا كانت قد وقعت واقعة بعد انتصاره على اللوبيين لفصل لنا فيها كما هى العادة عند الفراعنة.

أما تاريخ خروج بنى إسرائيل فغير معلوم ولا يمكن تحديده بصفة قاطعة. وعلى ذلك فقد رأت طائفة من المؤرخين والأثريين من هذه اللوحة أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت فى فلسطين لهزيمة مرنبتاح، فينبغى أن يكون خروجهم بالضرورة من مصر واستقرارهم بعد سنوات التيه الأربعين فى فلسطين قد حدث فى عصر قبل عصر مرنبتاح وافترضه البعض فى عصر تحتمس الثالث أو امنحتب الثالث. وهناك طائفة أخرى ترى كما ذكر فى العهد القديم أن الفرعون الذى قام باضطهاد بنى إسرائيل وسخرهم فى خدمته هو «رمسيس

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٧، ص ١٠٩.

الثانى». وأن الفرعون الذى ينسب إليه الخروج هو ابنه مرنبتاح. ويستدلون بذلك بما ذكر فى العهد القديم سفر الخروج (الإصحاح ١ : ١١):

«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس».

و كما يذكر سليم حسن[1] والذى يشير إلى أن الاسرئيليين أجبروا على السخرة فى إقامة مبانى مدينتى «بتوم» أو كما جاءت فى العهد القديم «فيثوم» ورعمسيس اللتين كانتا تستعملان مخازن. وأن الحفائر التى تمت فى «تل رطابة» (بتوم) و«بررعمسيس»، قد دلت على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أقيمت فى عهد «رمسيس الثانى». حيث تم التحقق من اسم كلتا المدينتين فى العهد القديم فردت الأولى إلى تصحيف فى اسمها الأصلى «برتوم» بمعنى «دار أتوم» إله الشمس الأكبر. وردت الثانية، كما هو ظاهر، إلى اسم رمسيس، وعثر على آثار تحمل اسمه هناك. وكان قد اتخذها هو وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم برعمسيس بمعنى دار رمسيس.

ومن الأدلة الأثرية التى تمدنا ببعض الإفادة فى هذا الموضوع تلك الوثيقة البردية المعروفة بورقة «أنستاسى السادسة» والمحفوظة بالمتحف البريطانى بلندن. وهذه الوثيقة ذكر فيها أحد الموظفين أنه كتب لرئيسه فى خطاب حكومى ينسب إلى عهد الفرعون الملك مرنبتاح:

(إن بدو (شاسو) إيتام (إدوم) قد سمح لهم على حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم «سكوت» (تل المسخوطة) فى «وادى طميلات» ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بلدة «بتوم» (بيت آتوم) فى ضياع الفرعون العظيم.

ووادى طميلات المذكور هو وادى ضيق كانت تجرى على جانبية قناة متفرعة من النيل شرقاً حتى البحيرات المرّة، وهو بمثابة مدخل لمصر من آسيا. وقد كان هذا الوادى موضع اهتمام «رمسيس الثانى» فأقام فيه عدة حصون، ففى وسطه أنقاض مبان فى «تل رطابة». وعلى مقربة منه شرقاً نجد بقايا مدينة «بر آتوم» (بيت آتوم وهى المعروفة باسم «بتوم»). وعلى مسافة منه شرقاً تصادفنا أنقاض «تل المسخوطة» المعروف باسم «سكوت» وبالمصرية القديمة «سكو».

والبردية التى فيها هذا الخطاب قد وجدت ممزقة ولذلك لم يتسن ترجمتها كلها على

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٧، ص ١١٦ .

الوجه الأكمل وما تبقى منها نص قصير والترجمة الدقيقة له هى:

(أمر آخر يسر سيدى، لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل «شاسو» التابعين «لأدوم» من حصن «مرنبتاح حتب حر ماعت» له الحياة والفلاح والصحة فى «سكوت» نحو برك «بتوم» لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم فى ضيع الفرعون له الحياة والفلاح والصحة وهو الشمس الطيبة لكل أرض.. ولقد جعلتهم يحضرون..) إلى هنا ينتهى النص الموجود بالبردية[1].

وهذا الخطاب كتب فى السنة الثامنة من حكم الفرعون مرنبتاح. ويظهر منه أن هؤلاء الشاسو (البدو) كان قد سمح لهم بالاستيلاء على بعض أرض الفرعون فى جوشن (وادى طميلات)، ومن البديهى أن هذه الحالة لا يمكن أن تحدث إذا كان الإسرائيليون لا يزالون يقيمون فى أرض جوشن فى السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون.

وعلى ذلك فلابد أن تكون حادثة الخروج قد وقعت فى وقت ما قبل هذا التاريخ، وهذا يجعل تاريخ الخروج على أية حال قريباً من تاريخ نقش اللوحة. وهذا الدليل لا يسمح بتقريب زمن خروجهم أكثر من ذلك بل يجوز أنه قد يتقدم به.

وعلى النقيض من ذلك هناك من ينفى صلة بنى إسرائيل بلوحة النصر أو لوحة مرنبتاح السابقة ومنهم د.رمضان عبده[2] الذى يذكر أن أغلب العلماء عندما يتعرضون لهذه الفقرة فى كتاباتهم يترجمون كلمة «يزريل بـ إسرائيل» وهذا ما يخالف فى رأيه قراءة وترجمة الكلمة على هذا النحو. ويرى قراءتها وترجمتها بـ «يسيراو» والمقصود بهذه التسمية سكان أو قبائل سهل «يزريل» أو «جزريل» (Jezreel) ـ الذى ذكره العهد القديم تحت اسم اسدرالون (Esdraelon)، وهو مرج ابن عامر من الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل والذى يمتد من حيفا غرباً إلى وادى الأردن.

ومن ناحية أخرى فإن ترجمة الاسم بـ «إسرائيل» يخالف ما كان سائداً من أوضاع سياسية فى فلسطين فى عصر الأسرة التاسعة عشرة وما قبلها، لأن ترجمة الكلمة بـ«إسرائيل» يعنى وجود أرض مملكة إسرائيل على أرض فلسطين فى بداية هذه الأسرة أو قبل قيامها بفترة، وهذا لم تشر إليه النصوص من هذه الفترة.

---

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٦، ص ٥٨٧.

(٢) رمضان السيد عبده (دكتور)، تاريخ مصر القديمة، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، هيئة الآثار المصرية، جـ ٢، ١٩٩٣.

ويبدو أن جيش مرنبتاح قد اتخذ الطريق الدولى القديم الذى يمكن تتبعه من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز فى شبة جزيرة سيناء. ومن سيناء يتجه الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى جبال الكرمل على مسافة من البحر. ومن هنا يتفرع إلى طريقين يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانى الفينيقية. ويسير الأخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأساً إلى دمشق فى الشمال الشرقى.

وكما يحدثنا نص مرنبتاح أن جيش الملك بدأ بمعاقبة كنعان ويقصد بها هنا مدينة غزة ثم عسقلان وهما يقعان على الساحل الجنوبى لفلسطين، ثم سار إلى وادى الأردن أو منطقة مرج ابن عامر (Esdraelon) أى اجتاز فلسطين بأكملها وتقابل مع سكان أو قبائل سهل جزريل أى فى المنطقة التى تفصل بين تلال الجليل فى الشمال عن مرتفعات فلسطين فى الجنوب. ويلاحظ أن الكاتب المصرى قد اتبع الترتيب الجغرافى أى ذكر مدن جنوب الساحل ثم الموجودة فى الداخل فى الشمال الشرقى.

ويضيف د. رمضان عبده فى بحث آخر له[1] أن كلمة «يزريل» بها مخصص العصا المعقوفة وهو المخصص نفسه الذى نجده فى أسماء الشعوب الأجنبية. كما أن كاتب النص أضاف إلى الكلمة أو الاسم مخصص الرجل الجالس والمرأة واتبعهما بثلاثة شرط علامة الجمع. مما يؤكد أنه يقصد الأقوام أو الشعوب أو القبائل أو الأشخاص.

ويلاحظ أيضا خلو الكلمة أو الاسم من أية مخصصات للمكان (الجبل أو المدينة) مما يدل على سكان البلاد الأجنبية والذى نجده فى أسماء بعض المدن الفلسطينية مثل كنعان وعسقلان وجزر وينعم. ونلاحظ كذلك أن فى أسماء هذه المدن الأخيرة يوجد مخصص العصا المعقوفة والجبل معا مما يعنى أنها تخص ممالك أو دول وشعوبها أو مدن سكانها. ولهذا فإن غياب مخصص الجبل أو المدينة من كلمة «يزريل» يدل على أن التسمية يراد بها أقوام كانت تعيش فى مناطق الحواف الجنوبية لسهل جزريل شرق شمال جبال الكرمل، ولهذا لم يربطهم النص صراحة بمدينة أو بمنطقة جبلية داخل فلسطين نفسها. وذلك يعنى أيضا أنهم كانوا أقواماً فى حالة ترحال وتنقل دائمين، أو كانوا من سكان مناطق السهل المتاخم للحدود مما تؤكده علامة الحدود فى الاسم. ومما يدل على أن الحديث هنا فى كلمة

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، اللوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل، مجلة كلية الآداب جامعة المنيا، ١٩٩٠.

«يزريل» عن سهل، هو المصطلح المصرى القديم : bnprt.f أى "لم يعد له بذور" حيث إن الزراعة لا تنمو إلا فى مناطق السهول. كما أن الكاتب المصرى استخدم الضمير المتصل للشخص الثالث الغائب المذكور المفرد للدلالة على الملكية «له» ولم يكتب «لهم».

ويضيف بأنه لم يذكر لنا النص من قريب أو من بعيد أنهم كانوا من نزلاء فلسطين. كما يستدل بنص مؤرخ من العام الثامن من حكم رمسيس الثانى جاء فيه التعبير الجغرافى يزرى (ل) الذى كان يطلق على المنطقة جنوب فينيقية وهذا التعبير قريب الصلة بكلمة «يزرى» فى نص مرنبتاح حيث يلاحظ وجود مخصص العصا المعقوفة والجبل معاً فى نهاية الكلمة. وهذا النقش عبارة عن نص موجود على البرج الشمالى للصرح الأول فى معبد الرامسيوم يسجل فيه الملك رمسيس الثانى استيلائه على ٢٨ مدينة فى منطقة الخليل قامت بثورة ضده، واستولى عليها الواحدة تلو الأخرى.

وعلى ذلك فإن كلمة «يزريل» (Jezreel) «مرج ابن عامر» فى شرق شمال جبال الكرمل يقصد بها سكان هذه المناطق ولا يقصد بها كما فهم أو فسر أغلب علماء الدراسات المصرية بالاسم «إسرائيل». ومما يعزز هذا الرأى هو ما جاء فى نهاية الفقرة: «وخارو أصبحت أرملة لمصر»، وكما نعلم أن كلمة «خارو» كان يقصد بها جنوب فينيقية (أو سورية) وجزء من فلسطين. ولم يظهر أى من التعبيرين: يزريل الذى جاء فى نص مرنبتاح ويزرى (ل) الذى جاء فى نص رمسيس الثانى فى المصادر التاريخية أو الأثرية المصرية من العصور اللاحقة مما يشير إلى أن هذين التعبيرين استخدما فقط فى الأسرة التاسعة عشرة للتعبير عن معنى جغرافى محدد.

ويشير إلى أن كل هذه المعطيات تصب فى خانة أن المقصود بكلمة «يزريل» فى نص مرنبتاح هم قبائل سهل جزريل الذين أرادوا أن يحتكوا بجيوش الملك مرنبتاح فأنزل بهم أشد العقاب. وإذا نظرنا إلى ترتيب ذكر مدن الساحل فى نص مرنبتاح نجده يذكر كنعان وعسقلان وجزر وينعم مما يدل على أن جيوش الملك بعد أن أخضعت مدن الساحل اتجهت إلى الناحية الشرقية الشمالية من سهل فلسطين لإخضاع القبائل هناك الذين ربما تعرضوا لسبل التجارة المصرية والدليل على ذلك أن نهاية النص تخبرنا « وبالنسبة لأى من (أقوام) الرحل الخارجين (عن الطاعة) فإنه سوف يقضى (عليه) بواسطة ملك مصر»وتختلف قبائل سهل «يزريل» عن جماعات البدو المعروفة التى كانت تقطن جنوب فلسطين وتغير على الحدود الشرقية لمصر وتهدد طرق التجارة مثل العابيرو، والشاسو والبديوشو. وقد فرق

الكاتب المصرى فى نصوص الدولة الحديثة بين هذه القبائل خارج حدود مصر الشـرقية، فهى قبائل رحل.

وتشـير الفقرة «لم يعد له بذور» أن المنطقة أصابها دمار شـديد، أى لم يصبح لديها ما تستطيع أن تقتات به، على الرغم من أن النص لم يذكر السبب الحقيقى وراء معاقبة هذه الجماعة أو القبائل. ولكن كان من نتيجة هذه الحملة أن أصبحت سـورية وفلسـطين بدون حمايـة، وهذا هو المقصـود بالتعبير «خارو أصبحت أرملة لتامـيرى» أى إن جيوش الملك نجحت فى تأمين الحدود الشرقية وما وراءها.

كما أن اسم إسرائيل لم يرد فى مصادر التوراة إلا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حين ذكر أن ميشع ملك مؤاب حارب إسرائيل، وأن لوحة مرنبتاح ترجع إلى القرن الثالث عشر ق.م (١٢٣٠ق.م)، فى العام الخامس من حكمه.

ومـن هنـا يصل إلى أن نص مرنبتاح ليس له صلة بأحـداث الخروج وذلك لأننا نعلم أن الظروف التى مهدت للخروج وأسبابه معروفة فى آيات القرآن الكريم وكذلك المعجزة التى وقعـت خلال الخروج. فكلمـة «خروج» أو «طرد» لم ترد فى نص اللوحة بالنسـبة لقبائل سهل «يزريل» ولم يذكر النص كذلك أى تتبع للملك لهذه القبائل من داخل الحدود المصرية نفسها، ولم يذكر النص أيضاً أية معجزة.

وقد عثر على اسـم الملك مرنبتاح على أكثر من أثر فى شـبه جزيرة سـيناء وجزر ورأس الشمرة وتل الدوير فى فلسطين مما يدل على نشاطه واهتمامه بتأميم هذه المناطق الشرقية.

ويبـدو أن عهـد مرنبتاح كان عهداً لإحياء روح الكفاح الوطنى، ففى عهده كتبت بردية سـاليبة رقم ١ التى تعود بالأحداث إلى الوراء وتحدثنا عن بداية حرب التحرير ضد ملوك الهكسوس والتى بدأها «سقنن رع». وكتبت هذه البردية فى ذلك العهد لتبين أن الانتصارات القومية القديمة لم تمح من مخيلة بعض المثقفين والكتبة مهما طال الأمد عليها.

ويبدو أن تسـجيل الانتصار على الليبيين وشـعوب البحر على أكثر من مصدر، وكتابته فى نص طويل من ثمانين سطراً «نص الكرنك الأثر رقم ٤» يدخل ضمن هذه السياسة لبعث روح الكفاح الوطنى والإشـارة إلى حملته على آسـيا وبعض المدن الفلسطينية، والمبالغة فى معاقبة هذه المدن وقبائل سهل يزريل ربما كان اتجاهاً معيناً من الكتبة المصريين الذين ربما قد تأثروا بأحداث الخروج المحتمل وقوعه أو حدوثه قبل عهد مرنبتاح؟.

وهناك حقيقة هامة وهى أن آيات القرآن الكريم تؤكد لنا أن فرعون قد غرق هو ومن معه

أو هو وجنوده ثم أمر الله عز وجل بأن ترفع جثته مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

وقد قال ابن عباس[1] وغيره من السلف فى تفسيره لهذه الآية: «أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون، فأمر الله سبحانه وتعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا من موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى «فاليوم ننجيك» أن نرفعك على نشز من الأرض «ببدنك». قال مجاهد بجسدك، وقال الحسن «بجسم لا روح فيه» وقوله «لتكون لمن خلفك آية» أى لتكون لبنى إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر. وجاء فى سفر الخروج «أن ملك مصر قد مات وتنهد بنى إسرائيل».

والآن كيف يكون مرنبتاح هو فرعون الخروج كما يدعى البعض طالما أنه قام بحملته على فلسطين فى العام الرابع أو الخامس من حكمه، فلو أنه غرق لما ذكر اسمه على بردية أنستاسى السادسة، والمؤرخة بالعام الثامن من حكمه. كما أن لدينا آثاراً مؤرخة بالعام العاشر من حكم مرنبتاح. وإذا كان الملك قد غرق فى أعقاب طرد بنى إسرائيل لما قيل له فى نهاية السطر ٢٨ على لوحته هذه الدعوة والتى تذكر لكل ملك: «معطى الحياة مثل رع يومياً» والدعوة نفسها ذكرت فى نص الكرنك «الأثر رقم ٤ السطر ٧٩ معطى الحياة مثل رع أبدياً».

كما أن مدة حكم مرنبتاح كانت مدة حكم قصيرة نسبياً فقد حكم حوالى عشرة أعوام أو أقل أو أكثر بقليل، وعندما تولى الحكم كان كبيراً فى السن. وعلى الرغم من كبر سنه إلا إنه كان خبيراً فى شئون السياسة الخارجية وشعر بالخطر الذى كان يهدد حدود مصر الغربية والشرقية. ويبدو أن تأثير مرنبتاح فى أبيه العجوز كان كبيراً وكان هو الموجه الحقيقى للسياسة الخارجية للبلاد لهذا فإن احتمال حدوث الخروج فى عهده مع الظروف التى مهدت له لا يمكن أن تحدث خلال هذه الفترة القصيرة من الحكم وعلى ذلك فهو ليس فرعون الخروج، ولا لحملته على فلسطين أية صلة بأحداث الخروج.

وبناءً على كل هذا فإن تسجيل أحداث الخروج بما فيها من وقائع وتفاصيل ومعجزات يحتاج إلى كثير من الأسطر وربما إلى أكثر من نقش على لوحة واحدة.

ومن المحتمل أيضاً أن أحداث الخروج قد حذفت عن عمد من النصوص لأنها تمس العقيدة ولهذا فلا يجب الاعتماد على فقرة قصيرة أو كلمة مشكوك فى قراءتها فى نص

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير.

مرنبتاح للإدلاء بآراء كبيرة والربط بينها وبين حدث دينى هام مثل حادث الخروج، وتخيل قيام مملكة إسرائيل قبل قيامها الفعلى بأربعة قرون تقريباً يتعارض مع حقائق التاريخ.

كما أن الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٦ ق.م) قد قام بعد العام الحادى عشر من حكمه بحملة للقضاء على ثورة قامت فى بلاد الشام. وقضى الملك على جماعة من البدو كانوا يتنقلون فى الصحراء جنوب فلسطين ولم يكن ذلك سوى غارة حربية لم تتكرر بعد ذلك ولم تذكر نصوص رمسيس الثالث أية إشارة إلى بقايا لأقوام اليسيراريو مما يدل على أن الملك مرنبتاح قد قضى عليهم تماماً.

ومن المحتمل أن يكون هناك نوع من الرقابة قد فرض على تسجيل مثل هذه الأحداث وعدم الإشارة إلى ما تعرض له فرعون موسى من مصير وما حدث فى عهده من معجزات أو كوارث. لأن كل ما كان يعبر عن الفشل والمصائب والكوارث فى حياة الملوك نجده قد انتزع من النصوص الرسمية أو أشير إليه إشارة عابرة.

وإن سير الرسل والأنبياء وما نادوا به من رسالات وما قاموا به من أعمال ومعجزات هى رسالات روحية سماوية مقدسة أسمى من أن تسجل على أثر مادى وأسمى من أن تسجل بواسطة كتبة عاديين أو بواسطة من لهم خبرة فى النقش والنحت. لأن سير هؤلاء الرسل الذين شرفت بهم أرض مصر القديمة منهم سيدنا إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وغيرهم ظلت بدون شك حية فى قلوب من آمنوا برسالاتهم ومن عاصروهم من أبناء مصر القديمة. وظلت ذكرى ما نادوا به تتناوله الأجيال عبر آلاف السنين. فجاء ذكرهم فى آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم وذكرهم وذكر أعمالهم فى آيات القرآن أبلغ من أى مصدر آخر من صنع البشر، وذكرهم إنما هو بمثابة تشريف لتاريخ مصر القديمة.

كما ظلت المصادر التاريخية فى بلاد الشرق القديم على صمتها إيزاء قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم والذين جاء ذكرهم فى آيات القرآن الكريم منهم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى وإلياس وياسين ويونس وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم. فلم نعثر حتى الآن على أية إشارة لهذا القصص فى المصادر الأثرية القديمة بلغة أقوامها فى بلاد النهرين وفلسطين والأردن وشبه الجزيرة العربية أو فى غيرها. ألا يدعونا كل هذا إلى التأمل والتفكير ؟.

وللأسف فإن بعض نظريات علماء الدراسات المصرية القديمة والتفسيرات الخاطئة لبعضهم تلقى قبولاً من البعض، كما يذكر د. رمضان عبده، فيتبناها غير مدرك خطورتها

دون الرجـوع إلى قراءة النصـوص الأصلية قراءة صحيحة، فالتلاعـب بالكلمات وتزويرها وطمـس الحقائـق أو تحريفها أمر متوقع مـن دعاة بعض التيارات السياسـية كالصهيونية ومؤيديها في أوروبا لتفسـير التاريخ حسـب أهوائهم وأطماعهم وإعطاء التفسيرات اللغوية الخاطئة بعداً تاريخياً لا يتفق مع حقائق الأحداث.

□□□